# رواية

## من قال انتهينا

تأليف :

سماح الجلوي

تصميم الغلاف :

شيماء حسن

جميع الحقوق محفوظة

عصير الكتب للنشر والتوزيع والنشر الالكتروني

المدير العام :

محمد شوقي

# من قال انتهينا..

رواية

## سماح الجلوي

**فراقنا محال يا أخي ولو كان بالموت..**

**رحمك الله يا «سامح».**

-1-

يقرع جرس المنبه بصوت يشبه صوت سارينة إسعاف، مُلحاً في إيقاظها متناغماً مع دقات قرع باب حجرتها..سيمفونية الصباح وكل صباح، تحاول فتح عينيها وكل جفن فيهما كأنما حط فوقه صخرة، قليلاً استطاعت، مشوشة صورتها المنعكسة من المرآة المقابلة، تفكر.. لمَ كان عليها أن تضع المرآة متقابلة مع فراشها، فتصحو كل يوم على صورتها المشوشة بغبش الرؤية الذي يصحب أول ثوان بعد الاستيقاظ، شعرت باختناق كأن ضبابا ثقيل حط فوق وجهها، فكت آخر زرار من قميصها وراحت يدها تتلمس رقبتها، ماتزال رقبتها متصلة بجسدها ورأسها، وهذا يعني بأنها لم تمت بعد، ثم ضمّت يدها وحطّت بها فوق جبهتها، جرس المنبه، قرع الباب، صوت من هو خارج الباب، أبواق السيارات في الشارع، وحدها المصادفة رتّبت اختلاط كل تلك الأصوات في آن واحد، تحمل قلقا اتجاه الكون بأكمله بداية من نملة عابرة قد تصادفها الى حركة الأجرام في السماء، ماذا لو تحرك الأن نيزكا في السماء متجها الى الكرة الأرضية في أي وقت قد يصل؟ وكم من الخسائر سيسبب؟ ما حجمه وما البقعة التي سيسقط فيها؟ هل سيكون من الضخامة أن يسبب انبعاجا في الكرة

الأرضية ككرة طاولة ضغطت عليا طويلا بابهامها؟ "تبا للقلق " قالتها لنفسها ثم بعنف راحت تدق فوق رأسها بقبضة اليد كأنها مطرقة ترتفع وتنخفض على التوالي، ثم أكثر عنفاً تلاحقت الضربات سريعاً تنكسر معها زاوية انعكاس صورتها فوق إطار المرآة المقابلة ذات الإطار الذهبي، إلى أن شعرت بالألم، فثبتت بيدها الأخرى قبضة اليد، ألم مباغت، لم يكن بالرأس بل في أسفل قدمها.

- "سهيلة" افتحي الباب أرجوك، هذه المرة أتوسل إليك بكل شفقة قد تكون مست عاطفتك، ولكن لآخر مرة أن تفتحي الباب.

نفس الجملة تتكرر، ثم:

- إن لم تفتحي الباب سنكسره، وصدقيني ذلك ليس تهديداً.. افتحي الباب يا سهيلة.

غير مبالية بالضجة وراء الباب، وفي هدوء تام وجّهت "سهيلة" رأسها ناحية المنبه؛ لالتقاطه ومن ثم الإلقاء به صوب الباب، فيصمت الاثنان معاً، تردد بداخل نفسها: "إن محاولة جعل هؤلاء يفهمون أنني أريد الانتحاء بنفسي هي نفس محاولة جعل القطط تتصادق على الفئران". دارت بوجهها ناحية الجانب الأيسر، إن المنبه ليس موجوداً في مكانه، بل مشرط طبي أحمر لونه، وكأنه غُمِس في صبغة حمراء،

تناولته سهيلة مندهشة، الألم يزداد وبلل يسيل من بين أصابع قدمها، تفحّصت المشرط، تلك ليست صبغة،إنما دماء شبه متيبسة.

عاد الهجوم عليها.

- "سهيلة"، أمس كان صوتك غريباً ومختنقاً وفيه حشرجة مخيفة، فيما يبدو أنك كنت تحلمين بكابوس، افتحي لنناقش أمر هذا الحلم المزعج، ربما نأخذ رأي بنات خالاتك، وقد نقيم أمسية هذا المساء على شرف كابوسك، افتحي الباب، ألا تغريك تلك الفكرة جميلتي؟!

ألقت "سهيلة" المشرط من يدها سريعاً، رفعت أطراف الغطاء، لكنها لم تجرؤ على رفع الغطاء كله، فسحبته إلى ركبتيها، وتوقفت بعدها لثوانٍ. شهقت حينما تذكرت أنها وضعت شيئاً ما في جيبها قبيل نومها، خالفت هاجسها أن تكون قد آذت نفسها مرة أخرى، نظرت إلى المرآة مرة أخرى، إنها وهي ممددة خامدة، على غير ما بداخلها، إن كل ما بها مضطرب يرتعش ويهتز، شخص آخر سجين بداخل شخصها، كل ذلك الاضطراب يقابله سكون أمامها في المرآة.. انه الجسد في مواجهة النفس.

ترفع كمّي ذراعيها، ترتفع بنظرها وتنخفض على الجروح والندبات، كل جرح في جسدها بذكرى جرح في نفسها، إلا أن الزمن يشفي جروح الجسد، ولا يشفي جروح النفس، تحاول تذكر ما حدث لها بالأمس،

لكنها تنفض الفكرة من رأسها، انها لن تستسلم مجددا للذكريات المؤلة هذا ما تعد به نفسه دائما، لكنها تخلف الوعد كل مرة، وها هي الذاكرة تفرش بساطها فوق عقلها.

- قص شعري لا تجعلني في مظهر يوحي بأنني أنثى.
- لماذا آنسة سهيلة، شعرك طويل جدا وكثيف كل فتاة تحلم بامتلاك ذلك التاج الثمين .
- هل ترى حقا أنني آنسة؟
- ذلك هو الظاهر أمامي.
- أنا لست آنسة ولست مداما، ولست أنثى ولست رجلا، ويتيمة ولكنني أيضا لست كذلك.
- اذا أنت من؟
- لا أعرف .. وذلك هو ما يعذبني.

كان ذلك حوارا دار بينها وبين الكوافير منذ عام مضى، اتى اليوم يثبت وجوده دون سبب واضح، فكرت ربما لأن موعد قص شعرها قد اقترب وعقلها الباطن يذكرها ليس أكثر، ربما لشعور بثبات جهلها بما هي عليه فعلا، لكنها تتراجع فتفكر هذه المرة بشكل مدافع يدافع عن وضعه لمجرد أنه لم يستطع تغييره ، في أنها مجرد ذكريات ولم تعد قدرا، ولن تقدر على الرجوع،

جل ما ستفعله هو اثارة الفوضى بداخلها وازعاجها، ثم تعد نفسها وعدا آخر " هذه آخر مرة يا سهيلة تستسلمي فيها للذكريات".

أنها وضعت شيئاً ما بداخل جيبها قبيل نومها، شيئاً مهماً، ولكن نسيت ما يكون، تسللت بأصابعها قبل أن تضع يدها في جيبها لتَخرج بإصبع قدمها الكبير، صرخت بعدها صرخة مدوية قبل أن تفقد الوعي.

على إثر الصرخة صرخت الفتاة خارج الحجرة هي الأخرى تهتف طالبة المساعدة:

- أبي، أبي، "سهيلة"، أنجد "سهيلة".

بداخل حجرة بمشفى خاص تستلقي "سهيلة" هادئة فوق سرير تستقبل تدفقات الضوء من مصباح موازٍ لمدى بصرها، يجلس إلى جوارها رجل تعدى الخمسين بسنوات بظهر محني، وقد ارتفع منكباه، فغاصت رأسه بينهما قليلاً، ينظر بأسف إلى الوجه الحزين.

- أمازلت تبتسمين حين أقصّ عليك بعض قصص اليونان والأغاريق القديمة، أأعيد قراءة واحدة لك؟
- لا
- لا لم تعودي تبتسمين، أم لا، لا تريدين سماع قصة؟

- احكِ لي، ولكن لن أبتسم.
- أتراهنينني؟
- المراهنة هنا حرام؛ لأنها على المشاعر.
- علام نراهن إذاً؟
- على الحياة والموت يا أبي.

صمتت قليلاً، ثم سألت ذلك السؤال الذي لا إجابة له:

- ترى كيف تعيش الجمادات التي تحيط بنا؛ هذه الخزانة، وهذا الكرسي، والطاولة، والجدران... ترى هل يمتلكون نفساً أخرى مضطربة تباين ذلك السكون؟

ثم راحت تتفقد المكان..الحجرة بيضاء، لكن عيونها كانت غارقة في السواد، والأسود مع الأبيض خلق الرمادي فوق الجدران والستائر والشراشف، ثم رويداً رويداً بدأت تكتشف الألوان، كيف ستكون حين تخلط بالأسود؟ ولكن ماذا عن لون جلدها؟ كان بنياً محروقاً، هل تلك أول مرات احتراقها؟ سألت نفسها ثم غاصت في التفكير بينما تراقب ورق الشجر المتفحم من النافذة، لقد احترقت مرة من الماء الساخن، حين تركت والدتها الغلاية ونسيتها هي في المطبخ، أين ذهبت أمي؟

- ماما ماما.

الطفلة تفكر في الوقوف، لا بل تقرر، فالأطفال لا يفكرون،إنما يتخذون القرار مباشرة، ومنذ متى كبرت، فلطالما أخذت كل قراراتها فجأة مثل صاعقة، تبرق الفكرة ثم تضرب الصاعقة، ومن ثم تعمل العاصفة عملها، تتشبث بالمفرش فتقع غلاية الماء وينسكب الماء الساخن فوق ذراع الطفلة ومن ثم صرختان.

- ماما.
- "سهيلة".

أخيراً تحضر الأم، هل كان على الطفلة أن تحترق لتنتبه الأم؟ وهل الأذى هو ما يؤكد الأهمية بالضرورة؟ نعمإنهالألم مرة أخرى تشعر به.

تبحث سهيلة عن زر إنذار المرضى حالة وجود خطب ما مع المريض، فتذكرت أن والدها لا يزال معها.

- بابا..إذا سمحت اجعلهم يُحضرون لي مُسكّناً.
- لماذا قطعت إصبعك يا ليلى؟
- أنا أشعر بالألم بابا، أريد مُسكّناً.
- ما بك؟ هل هي مشكلة عاطفية؟ هل خذلك حبيبك؟ إنني متفهم لما قد تمرّ به الفتيات في عمرك، فأنتِ يا ابنتي مازلت مراهقةً وإن كبر عمرك، مندون خبرة في الحياة لا قيمة للعمر.
- إذاً خبرتي أكبر منك.

- ماذا؟
- لنقِس الخبرة بالألم، وتعالَ نقارن وجعك بوجعي، تعالَ نعدّ الجروح، والطعنات، والخيبات، تعالَ نحسب منسوب الدمع وحجم الفاقد من العمر، وأما الآن فأنا أحتاج لمسكّن.
- ممنوع.
- وما الذي يمنع؟
- الطبيب لم يأمر لك بجرعة مسكّن أخرى، أستطيع أن أعطيك كوب ماء إذا كان حلقك جافاً.
- إنني لست مستوعبة، أطلب مُسكّناً فتقترح عليّ الماء، مُسكّن، مُسكّن، أسمعتَ؟ أريد مُسكّناً.

قالتها بعصبية، تصكّ أسنانها ببعض، وعندما لم تستجب الأب راحتتقضم سوار المشفى الملتفّ حول معصمها،والذي كُتِب عليه اسمها ورقم هاتف، غاضبة على نحو غريب متوهج وناقم، وكان والدها ممسكاً بها من منكبيها يدفعها للاستلقاء، يسألها أن تهدأ، ضئيلة ورقيقة، تبرز عظمتي صدرها أسفل رقبتها، تقاوم بضعف، ولكن بكل ما تمتلك من حقد، وكلما استجمعت بعضاً من الطاقة الهاربة جحظت عيناها أكثر، واتسع بياض مقلتيها، وأطلقت زفيرها بتنهيدة عميقة. انغرست أظفارها في وجه والدها، فما كان منه إلا

الارتداد مذعورا أمام نظراتها الغريبة التي تتوسل الشفقة بشكل مرعب، وانفجرت من فمها نافورة قيءاندفعت في وجه والدها.

- طلقني يا "بدر".
- باقٍ من الشهر عشرة أيام.
- اخصم مقابلهم.
- ألا تستطيعين تحمُّل عشرة أيام من شهر واحد؟
- أشعر بالنفور منك، من أسنانك، من كفيك القاسيتين ومن نظراتك الحيوانية، من جسدك الشبيه بعجينة لينة مقرفة، منك كلك.
- لقد كان اتفاقا أنا دفعتُ، ولا رجوع في البيعة إلا بأمري.

مزيد من الغثيان على إثره تُخرج ما في أمعائها، نافورة تفجّرت تدفع القيء في وجه زوجها.

انتهت الذكرى التي وقفت عندها، كان وجهها أحمر قرمزياً، وقد ازرقّت عروق جفنيها الرقيقة، ينخفض ويعلو صدرها يتلاحق فيه الزفير والشهيق بسرعة، تركت ساقيها تنزلق من السرير، وتدلت بهما فوق أرضية الحجرة الباردة، ثم وقفت منحنية ترتكز بساعدها على حافته، لوّث قميصها الأبيض الفضفاض والمتهدل،فيما كان والدها ينظر إليها بذهول اقترب منها أكثر، ولكن بحذر.

- "سهيلة"،إن لم تنتبهي لنفسك فلن يساعدك أحد، اهدئي ليس على فتاة مثلك القيام بهذه الأفعال، ماذا أقول حين يخطبك مني شاب؟وكيف أفسِّر أمر إصبعك المقطوع؟ لمَ تعيبين نفسك يا صغيرتي؟
- هذا هو ما يهمّك!

أصابها جوابه بالخيبة، وراحت تتصرف كسيارة دون مكابح، تصرخ "سهيلة" كغير مألوف عادتها الهادئة الفاترة، في هيستيرية غير منقطعة منقضة على أنابيب المحلول المعلقة والموصلة بظهر كفها، تريد إخراجها عنوة، ينتفض وريدها المتضخم ضاخاً الدماء فوق القميص الأبيض، ومازالت تصرخ طالبة مُسكّناً.

- مُسكّن، مُسكّن، مُسكّن.

انطلق والدها طالباً النجدة، التمع وجهها المنفعل والمتضرج بالدماء لأقصى حد لتنتهز هي الفرصة وتفرّ هاربة يرتعد كل طرف فيها..دخل طاقم التمريض فلم يجدوها بالغرفة، وعلى إثر قطرت الدم اتبعوا أثرها مع طبيب وواحد من الأمن في دهاليز المشفى، محمومة هي بطاقة رهيبة تدفعها إلى الطيران، دخلت المصعد الإلكتروني على الفور، قبل أن يمسك بها أحد الأفراد، جلست على أرضية المصعد،حيث السكون بالداخل، وهرج ومرج بالخارج.

عقد الطبيب المسئول عن "سهيلة" ذراعيه يحدث والدها.

- ما حكاية ابنتك يا سيد "فؤاد"؟
- لا أعرف.. لقد كانت جيدة لا بل رائعة، ثم لا أعرف، ولا أحد يعرف، أصبحت غريبة تغلق على نفسها الباب بعد أن تكون أمّنت نفسها من الطعام والشراب ما يكفيها لأيام، تخرج لقضاء حاجتها مثل فأر المنزل دون أن يشعر أحد بوجودها، تخرج لا تحدّث أحداً، ثم تعود لجحرها كما السابق.
- لماذا لم تستشيروا أصدقاءها مثلاً؟
- فكرت في هذا فعلاً، ولكنني اكتشفت وبالمصادفة أنها لا تمتلك أي أصدقاء، هي هادئة وانطوائية، ولكن لم أكن أظن أنها منعزلة لهذا الحد؛ لأنها في المنزل كانت عادية، تتحدث، تضحك، وإن كانت لا تجيد الحديث الفكاهي، لكن أخواتها يفعلن، فتضحك لحديثهن إن ذلك الوضع ليس به شبهة قد تقلقني،وقد أحلت أمر عزلتها لكونها تحب القراءة، أنت تعلم أن الكتب تعزل الإنسانوتسرقه من محيطه لمحيطها.
- أعلم، لكن ليس لهذه الدرجة.
- وما العمل أيها الطبيب؟

التفت الطبيب اتجاه المصعد المتوقف يسوقه التحفز يدحرج أذنيه فوق الباب متقصياًأي همس قد ينبئ بحالة "سهيلة".

- هي لا تزال بجوارنا في نفس الطابق ولم تتحرك، سوف نفتح باب المصعد، ولكن في البداية أريد هرجاً زائداً وضوضاء حتى يتشتت ذهنها، اطرقوا على باب المصعد واهتفوا باسمها لو سمحتم.

الجوّ صيفي خانق رطب،والهواء شحيح بداخل المصعد، لكنها لم تكن تشعر بالحرأو الضيق،بل بالعكس شعرت "سهيلة"برحابة المكان المكتنز، انتابتها قشعريرة البرد مع الألم، لاحظت أن دماءها مازالت تنزف من وريدها، وكان الشاش المربوط به قدمها قد تبقّع بالدماء وراح ينزف أيضاً، الركض والتخبط استفزّ الجرح الحديث، فجعله ينزف، فكرت أنها على الأرجح مصابة بسيولة في الدم.. ان السلام لن يحل عليها الا اذا توقفت الحرب بينها وبين نفسها.

الخوف من أن تضر ضرراً بالغاً كان غريباً عليها، فمنذ متى كانت تهتم بصحتها، ربما لأنها لم تعاين اختبار احتمالية الموت بسبب عضوي، فحينما تحط فكرة الموت على رأسها، تتخيل امرأة شابة تعبت من العيش الكثير الذي لا يعني إلا خيبات أكثر وخذلاناً أكثر وغصات أكثر، امرأة وحيدة دون شراكة حقيقية صادقة، فاشلة حتى مع نفسها التي لم تنجح علاقتها بها ان حقيقة العالم كله انحصرت بجملتها في موقع

ضيق بين ماضيها وحاضرها وكأن الكون بأكمله تحول لتقرير صغير يمثل حالتها دون ادراك أنها مجرد ذرة غبار فيه ولعله تقديرها المتضخم لذاتها هو الذي ضاعف من شعورها بالألم، وتتخيل أيضا نفسها امرأة تقف فوق حافة سقالة منصوبة على بناء شاهق الارتفاع لم يكتمل تشييده بعد، تُقدّم قدمها اليمنى ثم يختل توازنها، وتسقط وفي زمن السقوط، تعيش عمراً آخر تكون فيه لأول مرة غير مضطربة، غير قلقة، دون خوف أو ندم، ثم ينتهي عمرها الآخر، وتفرّ روحها هاربة، ثم تتخيلها أخيرا وقد تحررت من أشباح الماضي.

لم يكن لديها أي فكرة عما يجب أن تفعله حيال النزيف ونفسها، فهل ستقيم العمر في المصعد؟ إنها لو بقيت على هذا الحال لتصفّت دماؤها وماتت، وهي لا تريد الموت بهذا الشكل، تكره أن تنتهي نهاية لا تحضر هي طقوسها، وتشرف على لمساتها الأخيرة، ولم تكن لتؤذي نفسها في مرة إلا من أجل أنها فقط تحب الألم، شعور باللذة ينتابها حينما تجرح جلدها كأنها عمياء عن جرحها وصماء عن صوت توجعها،هذا بافتراض أنها لا تشعر من الأساس بالأذى، أو كأنها كذلك، لا تحس،ووحده الألم هو من يراها ويسمع لها، فأنست له واستمتعت.

"لتنتهي هذه المسرحية"، قالتها وقت ما بدأ طاقم التمريض بالهتاف والقرع على الباب، بعدها فتحت "سهيلة" باب المصعد من تلقاء

نفسها وخرجت لا مبالية،انحشرت وسط الحشد المتفاجئ من فعلها والمتخوف من رده، إنها عادية، عادية تماماً وطبيعية جداً، متعبة ولكن قادرة على الاستمرار، هادئة وثابتة ومتزنة..إنهم هم من يبدو عليهم الاضطراب والتوتر، الاختلاف فقطفي كونهم ينتعلون نعالهم وهي حافية.

تنهض الذكريات من مرقدها وتطلُّ الذكرى برأسها مرة أخرة من الشرفة المقابلة ولكن هذه المرة في صورة طفلة منكسرة الجفنين، ألم تأخذ عهدا بأنها بعد آخر تأبين للذكريات لن تفتح قبرها،حسنا ، لن تفعل مرة أخرى، لن تعطي وعودا تعرف أنها ستخلفها.

- هكذا خربت حذاءك!

ثم لطمة فوق خدها الأيسر، أتبكي؟ لا، إنهالا تبكي، تتألم فقط وتصرخ، أمن الوجع تصرخ؟ لا ليس من الوجع، ولكن دفاعاً عن نفسها.

- هل تضربينني من أجل حذاء؟إنه مجرد حذاء، أما أنا فابنتك.
- نعم من أجل الحذاء الذي دفعت حقه، عشر ساعات متواصلة في غسيل المراحيض، لتشعري بألم مشابه، وتقدّري في المرة المقبلة.

الآن وبعد خمسة عشر عاماً حافية أيضاًومتألمة،ولكن من دون أن يلطمها أحد، لقد كبرت وأصبحت تشتري حذاءها من مالها، إن

الذكريات للأسف لم تذهب مع الماضي، إنما ازدادت حضوراً في الواقع بكل قوة وحماسة، تستغل كل ثغرة،كل رائحة، كل كلمة،أو تصرف...

- حسنا.. حسنا لقد انتهى هذا كله، خذني الآنإلى حجرتي.

قالتها لوالدها ثم تأبطت ذراعه، ورحلت معه.

أخذتها إحدى الممرضات برفق، وقد حوّطتها بذراعها، غيّرت لها ملابسها ونظّفتها، ألبستها رداءً نظيفاً، وغيّرت على الجرح، ظلت"سهيلة" صامتةإلى أن أثنت عليها الممرضة بكلمات رقيقة تقال عادة للفتيات الصغيرات المطيعات:

- شطورة يا "سهيلة".

حدجتها "سهيلة" بنظرة غاضبة وعلقت:

- هل تسخرين مني؟

دافعت الممرضة عن نفسها:

- ولكن...

قاطعتها "سهيلة":

- ولكنك مرائية.

ابتلعت الممرضة لسانها دون أن تتفوه بكلمة أخرى، حتى ساعدتها في الاستلقاء في فراشها، انه انطباعها العابر اتجاه كل من يحيط بها فالجميع اما كاذب أومراء أو منافق، نوعا من عدم الثقة والتحفظ الحذر اتجاه العالم أجمعه، تمددت فوق الفراش وطلبت طعاماً، فأحضروا لها شطائر المربى كما طلبت، لكنها رفضتها وطلبت عصيراً، ولما أُحضر لها طلبت إبداله بعصير الفراولة؛ لأنها تكره عصير المانجو، ومع عصير الفراولة طلبت شرائح المانجو؛ لأنها تحبها صحيحة، ولا تحبها عصيراً، نوع من الدلال المستفز أنهته بأن طلبت دفتراً وقلماً.

منذ فترة لم تكتب له، لقد كرهت قلة حيلتها ودموعها فوق الورق تشبّك حروف الحبر ببعضها، بينما تزحف الوحشة حولها كعيون التماسيح فوق صفحة ماء، يتصبب عقلها بكلمات من أنين ودخان، وحالما تتحول الكلمات لشلالات من العبارات تجرفها إلى التوقيع باسمها، وعند موقع نقطة النهاية تلتقي أخيراً بنفسها وجهاً لوجه إلى حيث الوحشة تزحف حولها كعيون تماسيح فوق صفحة ماء.

انها لم تكن بحاجة الى مساندة مادية بقدر احتياجها لمؤاذرة نفسية، ولأنها لا تمتلك أحدا يفعل ذلك، أدركت أنه من الأفضل لها اختراع كائن ما، تقحمه في حياتها، فما الذي كان من الممكن لها أن تفعله لتشد من ساعدها، ولسان حالها يقول " ولتتذكري يا سهيلة، أنني

فعلت كل ما أستطيع من أجلك فلو فشلت، لا تندمي، سأخترع لك شيئا جديدا" .. ربما لهذا السبب ما عادت تراسله شعورها بالفشل وأما السبب الأخر في رجوعها اليه أنها لم تجد كائن آخر، وهذا الكائن هو مرافقها المقيم بداخلها وخارجها، تأخذ منها وتعطيه، من مشاعرها أكثر مما يجب، وكم احتارت عمن فيهما تعلق بالآخر أكثر، هي أم هو؟ "إنه أعظم رفيق بالوجود" كانت تقولها لنفسها ثم تكمل.. "لأنه رفيقي أنا".

كتبت له:

اكتئابي العزيز..

دون سلام أو تحية، فلا أنت غبت حتى أحييك، ولا أنت ابتعدت حتى أقابلك بلهفة المشتاق إلى سلام اليد، فأنت تعرف رغم قلة محادثاتنا أن المكان الوحيد الذي أستطيع أن أسند رأسي فوقه مرتاحة مطمئنة هو صفحة رسالة أكتبها لك.

اشتقتُ لتسكّعنا معاً في طرق الحارات الضيقة والطرق السريعة الواسعة، وفي الحدائق الملتفّة بسياج الشجر القصير القامة والنخيل الباسط، وفي عربات المترو ومقاعد المطاعم، وفي كل الأماكن التي كانت فيهم قدماي تلامس الأرض وقلبي يلامس السماء.

ربما لا تعلم عني هذه الفكرة أنني قد أسامح من يتخلى عني، ولكني لا أسامح أبداً من طلبت منه البقاء إلى جواري وتخلى، وأنت لم تتخلّ عني، لقد دخلت من باب الحرمان العاطفي وأغلقت الباب، وقلت لي ها أنا ذا لك وحدي ووحدي لك، زرعت لي شجرة في الظل بغير شمس أو هواء، ولكنها وبرغم العزلة والانطواء كانت تنمو وتكبر تظللني وتورق وتورق تغطيني صيف شتاء وتحتويني في صمت.

يا من ليس له دار أعرفها فأراسلك على عنوانها، وإنما كنت أنا دارك في كل مكان وزمان، أكتب العنوان "إلى اكتئابي القاطن بداخلي"،أظن أن هذا هو الحب الحقيقي، فأنا لم أذهب إليك وأنت لم تتركني أذهب عنك، بل حاربت من أجلي؛ لأكون لك وحدك، وها أنا لك وحدك، أمامك أستطيع أن أصل اللاشيء بكل الأشياء، الوهم بالواقع، السعادة بالحزن، اللقاء بالأماكن والابتسامة بالشفاه العابسة، معك أشعر بالاكتمال أيها الثعبان الذي يلدغني لا ليسممني، ولكن ليعطيني الترياق من لدغات البشر الآخرين، وترياقك كان هو العزلةوالوحدة".

سهيلة

انتهت الرسالة، تركتها بداخل الدفتر، ثم طلبت طعاماً آخر؛ ذلك أن شهيتها الآن مفتوحة على مصراعيها.

في المنزل لم يكن هنالك من حديث جمع الأختين "سندس" و"سيرين"، وخلا من نفس السؤال، لماذا قطعت "سهيلة"إصبع قدمها؟ في تعبير ممتلئ بالاتهام بفقدان الرشد أحياناً وأحياناً بالشفقة والمواساة، الحديث أصبح مرهقاً ومضنياً، فاتفقتا في صمت على ألا تفتحا الموضوع، وآلت كل واحدة لعالمها،إلى أن جمعتهما وجبة الغذاء،الأختان "سندس" و"سيرين" جالستان على المائدة، صامتتان كل واحدة تلوم أختها بنظرات ناعسة تحت جفون كسولة، "سندس" تعاتب "سيرين" أنها توأم "سهيلة"، وعليها ملاحظة أختها منذ بدايات تغيرها، و"سيرين" تعاتب "سندس" أنها الأخت الكبرى ذات الخبرة في الحياة، وكان من المفترض عليها احتواء الأخت الصغرى دون الوصول إلىحد هذا الإيذاء، وكان طفلا "سندس" يتعاملان بسجيتهما يدوران حول المائدة، يختلسان أصابع البطاطس من وقت لآخر، ترسل "سيرين"إليهما نظرات غاضبة وإشارات آمرة بسبابتها أن يكفا ويجلسا على كرسيهما أمام الطاولة دون اكتراث منهما، حتى فاض بها ونهرتهما.

- كفى.

تسمر الطفلان كاتمين ضحكاتهما بكفّيهما، ارتفعت "سندس" برأسها من أمام الهاتف الذي كانت تتصفحه تمرر بنان سبابته فوق شاشته

بتركيز أغفلها عن المحيط، قطعه صوت أختها، فالتفتت إليها محدثة إياها بجزع:

- ما بك يا سيرين؟ اتركي الطفلان يلعبان لقد أخفتِهما.
- ألا تركت الهاتف يا "سندس" لنتحدث قليلاً؟
- ها قد تركته، إن كان ذلك ما يضايقك،هات ما عندك.
- مع من تتحدثين ليل نهار.
- شيء لا يخصك.
- عندك حق، عموماً، اتصلت بوالدي،وأخبرنيبأن وضع "سهيلة" مستقر، وقد تناولت وجبة طعام كبيرة ولكن...
- لكن ماذا؟
- لكن المال، المستشفى خاص وليس لدى "سهيلة" تأمين، لا تنظري لي..إن مال الجمعية ذهب كله لمدرسة الولدين.
- وأنا لا أعمل، أما "سهيلة"فتعمل ولديها دخلها الخاص.
- هل من المعقول أن يطلب والدنا منها المال، ثم إنها كانت تنفق على نفسها ببذخ، اتخذت حجرة خاصة في المنزل، وأثثتها، كأنها قصرها الخاص، الملابس والعطور وحتى الطعام، لم تكن أختك تتناول من طعامنا، أو تشاركنا حياتها أو تشارك في حياتنا، متكبرة ومغرورة.
- هل تغارين من أختنا يا "سيرين"؟

- لا، ولكنها غريبة، دائماً غريبة وغير واضحة.
- ولو، تظل أختنا، وحينما تأتي ليس علينا القاء اللوم عليها، بل مساندتها، أفهمتِ؟
- يالك من شديدة التهذب شديدة النفاق.
- أتعتبرين الرحمة والطيبة نفاق.

صمتت "سيرين" ثم اقترحت:

- ماذا لو أخبرنا والدتنا؟

لم تدعها "سندس" تكمل.

- لا تقترحي هذا الاقتراح مرة أخرى .. لو أن "سهيلة" علمت بهذا الأمر لانتحرت كلياً.

عادت سندس إلى هاتفها، وراحت "سيرين" في شرودها، كم سنة مرت؟ تسعة عشر عاماً، ممر طويل في العمر أمضته من دون أمها، كان عمرها خمس سنوات، بين الحين والحين تجلس بجوار باب الشقة، تنتظر قدومها، تسأل والدها: "متى ستعود ماما؟"، يجيب: "لن تعود"، فترجع إلى الباب تتوسل له، ألا أرجعت أمي؟ كأنه الحائل بينها وبين والدتها، وكأنه السبب في الفراق، تأخذها "سندس" أختها الأكبر منها بخمس سنوات، تضمها الى صدرها تهمس في أذنها "سنلتقي ثانية بأمنا، ذات يوم". تعانقها لتنام سيرين على أمل اللقاء

ليلة تلو أخرى، حتى اعتادت الفراق، لقد دفعت بها الظروف إلى اليتم دون يتم حقيقي.

مهما فعل والدها تظل تشعر بالنقص، مهما اشترى لها من أثواب جميلة تظل رديئة؛ لأنها من دون أم، مهما أعطى المال والحنان والحرية، ولطالما كانت المدللة بين أخوتها إلا أن حياتها ظلت من دون وجود الأم ناقصة، فقدان لازمها طوال العمر، لم يكن ليرضيها أي شيء أيا كان فتمردت تطلب كل ما هو غريب وغير مألوف مما انعكس أيضا على شخصيتها ومظهرها العام، وجهها مليء بالحلقان المثبتة في أذنيها وأنفها وشفتها السفلى، والكثير من الاكسسوارات، امتلكت أكثر من وشم في جسدها، وصبغت أطراف شعرها باللون الوردي، غاصت سيرين في الذكريات خلال ثواني حتى وصلت ومع الذكريات الماضية كادت تغرق ولكنها سريعا ارتفعت بنفسها للسطح، هربت تنهيدة منها بعدها تركت المائدة إلى حجرتها، ولم تكد تلمس طبق الطعام بيدها.

-2-

مختالة في ثوبها اللامع البهي كطاووس، تغفو فوق مقعدها بداخل صورة معلقة في الجدار المقابل لأم تتوسط ثلاث فتيات جميلات وهادئات، وهي ومن أمام صورهن تحترق.. تحترق.. تحترق، وتنشوي بداخلها دون أن يرى أحد دخاناًأو يشم رائحة الشواء، وتغرق.. تغرق.. تغرق في تيار ماضي امرأة يوماً ما كان لقبها "ماما"،والآن هي"المدام"، وأحياناً"السيدة"، وفي أوقات تلقى عليها صفة "الملكة"، مسميات سخيفة لا تحمل أي قيمة أو عاطفة، لقد منحتها الحياة ما تحب، ولكن ليس بالطريقة التي تحب، المقابل كان أعلى من المكسب، والأرباح إذا ما قورنت بالخسائر انكمشت وتقلصت، أصبحت مشهورة بعد أن أسندت لها الأدوار في السينيما والتلفيزيون، امتلكت كازينو يدر لها دخلا خياليا، فيلا في مكان راق وبعض من العقارات في أماكن متفرقة، مصوغات ومقتنايات قيمة ومع ذلك لم تكن لتهنأ بلقمة سبغت بالفراق والحرمان من بناتها، تشك في أنها حظيت في أي ليلة بنوم غير متقطع بكوابيس تخوض فيها عراكا وسباقا وصراعا مع آخرون،، لتكتشف أن للحياة جوهر آخر غير الظاهر، وها هي الوحشة برغم الزحام حولها تضربها، انها ومهما وصلت لمرتبة ترى نفسها مجرد أثرا على لوحات الاعلانات .. تنحنح السكرتير والواقف

الى جوارها حينما لم تلتفت له راح يسعل من لحظة إلى أخرى ليلفت انتباهها، لكن دون جدوى، وبعد مرات من النحنحة والحشرجة أخيرا انتبهت.

- أنت تضايق أعصابي يا "سمير".
- من المؤكد أنك شربت كثيراً بل أكثر من المعتاد.
- أنا لا أشرب أي كحوليات وأنت تعلم.
- وماذا عن المخدرات؟

"سمير"، وهو رجل قصير القامة خفيف الشعر يميل إلى البدانة كان يعمل عند مرؤوسته منذ كانت تعمل راقصة في الكازينو حتى امتلكته، إنه يبدي الاحترام في كلامه، لكنه لا يتوانى عن انتقادها؛ فهو حين يكون شديد الأدب معها والكياسة يشعر بأنه يعمل بطريقة الرجل المضطر إلى القيام بعمله، لكنه حينما ينتقد تصرفاتها فبذلك يكون قد أدى واجبه بضمير مرتاح، أما المرأة فهي نادية والدة سندس وسيرين وسهيلة، وبرغم كونها جاوزت الخمسين من العمر بسنوات،إلا أنها مازالت جميلة، ممشوقة القوام، خمرية اللون ذات عينين لم يجر الزمان على رسمتها ولا حرّك القوة بداخلهما، انخفضت نادية برأسها ببطء تجاه "سمير"، ومدت عدة رزم من المال.

- خذ هذه الأموال يا "سمير"إلى منزل "فؤاد"، واعرضها عليه وعلى البنات.
- إن هذا يحدث كل عام مدام "نادية".
- ربما يتغير الحال هذا العام.
- لشد ما تبدو عليك أمارات الثقة، انه لا يحق لي أعطاء الأوامر عليك، ولكن أقترح أن تذهبي بنفسك، أعتقد أن بناتك يحتجن إليك أكثر من المال.
- إنه وضع سيئ ومزرٍ، ولا يتحسن بل بالعكس، وحدها "سيرين" على اتصال بي بين فترة وأخرى، وأنت تعلم أنه لا لشيء سوى المال، ولو افترضنا ذلك فإن الأخريان لا تقبلاني.
- الوضع بينك وبين بناتك لن يتحسن من تلقاء نفسه.
- لقد حاولت معهن يا سمير كثيراً دون فائدة.. يكفي ما حاولت.
- حاولت بماذا؟ اسمحي أن أقول لك إنك أم سيئة.
- لا أنت كاذب، بل أنا لا أصلح لأن أكون أماً من الأساس.

ثم غرقت "نادية" في الأفكار مرة أخرى، تتذكر يوم الحفل الذي غير مسار حياتها بأكمله، امرأة تمسح المصاعد والشقق بالطلب، حتى كان ذلك الطلب، عيد ميلاد، لا تعلم لمن ولا أين، لقد تم طلبها من جانب وكيل عمل مكتب التخديم، دون أخذ رأيها أمرها "يوم الخميس

الساعة الثامنة صباحاً سوف تأتي سيارة وتقلكإلى مكان الخدمة من مقر مكتب التشغيل"، لم تفكر في شيء سوى بناتها، فهي ربما تبيت، حفلة كبيرة كتلك لن تنتهي إلا قبيل الفجر، أين تترك بناتها؟ لم يكن هنالك سبيل إلا في تركهن مع والدهن بمفردهن.

كانت هي وثلاثة أخريات، استقللن السيارة، المسافة الطويلة أربكتها، تلاحقت الهواجس واحدة تلو أخرى، قلبها وقتها لم يكن مرتاحاً وازدادت دقاته مع ظهور علامات القصر الفخم تلوح شرفاته ذات السقف المدبب من بعيد، شعرت بانقباضة لم تنسها العمر كله، إنها ما اعتادت دخول هذه الأماكن الغريبة عليها، إن أفخم مكان وطئته قدماها كانت شقة مدير عام لإحدى المصالح تقع في المعادي، من اتساع مساحتها وفخامة أثاثها ظنت أن هؤلاء البشر أعطاهم الله جنة فوق الأرض، وبمقارنة بين المساحتين فالقصر يقع بداخل مزرعة لا تكاد العين تحصي مداها، وكأن الهواء هنالك غير الهواء، والشمس غير الشمس، والخضرة أنواع غير، تنظر بعيون نهمة وفم مشدوه كما يفعل من كان في الظلام فخرج فجأة للنور بعد مدة طويلة، لا يدري هل هو في واقع أم حلم.

استُقبلن من قبل رجل آخر أوقفهن وسألهن واحدةواحدة.

- أي عمل ترغبين به، خدمة المنزل أم الضيوف؟

إنها تعرف معنى السؤال، خدمة المنزل تعني أن يُمسح بها البيت، أما خدمة الضيوف فتعني ملابس مميزة، يونيفورم خاص، ولكن الأمر لن يسلم من لمسة تحرش أو كلمة أو عرض رقم هاتف، إنه المكان الذي قد يضمّ من البشر من سيعتبرها عرضاً كعرض الطعام في البوفيه المفتوح، مقبلات رخيصة، في الواقعليس الجميع يفضل الكافيار فللترمس مُحبوه، تشعبت الأذواق، والبشر هم البشر، لا فرق بين فقير وثري ما دامت دونية الطين قد تحكمت فيه، إنما نحن روح وطين، سمو وانحدار، نور ونار، ولكن النفس لما مالت.. كانت "نادية"ترفض خدمة الضيوف لهذا السبب، ولكن إلى متى لن تتذوق بهجة الاحتفالات، وتدخل جنة الأرض؟ لذا قررت ألا تحرم نفسها من متعة ليلة ستحرمها من متعة أكبر، وقد شعرت من تلقاء نفسها بشعور بالاحترام لما ستكون عليه الليلة، إنها لن تمسح الأرض التي سيقف عليها أبناء جنة الأرض، وسوف تقف باستقامة توازي رأسها برؤوسهم، ستعطى لها الفرصة بأن تتجول حول هذا النوع من الشعب المختار، لقد ساغ القدر لها هذا الشرف فلِمَ تمنع نفسها؟!

رجوعاًإلى الحاضر لاحظ "سمير" أن "نادية" وهي إلى جواره تجلس على مقعدها في سكون غشت الدموع عينيها الشاخصتين إلى صور بناتها

وهن أطفال وقت ودّعتهن، فعلم أن الذكريات تزورها تاركة أمارتها بوضوح فوق وجهها،وصمت إجلالاً وتقديراً للوجع وللحنين.

في اليوم التالي، توجه "سمير"إلى منزل "فؤاد"، قرع الجرس وأنتظر طويلا قبل أن تفتح له سيرين، يحمل حقيبة سوداء صغيرة لا يزيد طولها عن عشرة سنتيمتر، منتفخة حتى امتلائها، مرت من أمامه قطة شيراز لم تعير فضوله اتماما ودخلت صندوقها، سيرين التي كانت بالمنزل بمفردها حين قرع الجرس شعرت بالخوف وحدسها هاجس أن من الممكن أن تكون فقدت أختها التوأم سهيلة، توجهت في بطءباتجاه الباب ضمت يداها ووقفت قليلا أمام الباب، ثم اقتربت بتروي ناحية العين السحرية، انه الرجل ولكن يولي وجهه الناحية الأخرى، ازدرات ريقها وسألت.

- من الطارق؟
- سمير سكرتير السيدة " نادية"

تنفست الصعداء وفتحت الباب على الفور.

- أهلا أستاذ "سمير".

التفت ناحية الصوت.

- أهلا سيرين، كيف حالك؟ أأأه هذه القطة هل نسيتها هنا؟

- لا بل نضعها خارج المنزل، انها قطة سهيلة وهي لا تريد أن تتخلى عنها ولا تريد أن تعتني بها.
- اذا من يفعل؟
- أنا أحيانا ووالدي غالبا.
- شيء غريب.
- لو كنت تعيش معنا لعايشت غربات عدة.. لماذا تقف أمام الباب، تفضل.

رشقت سيرين بنظرتها حقيبة سمير، إنه يوم العيد، والأمر لن يخلو من عيدية سترسلها والدتها، تركته في حجرة الجلوس وعادت بعد عشر دقائق.

- تفضل اشرب العصير.
- أين والدك؟
- مع أختاي.
- وأين أختاك.
- مع والدي.
- هل تلعبين معي يا فتاة؟ انطقي.
- اترك المال، وسوف أبلغه حين يأتي؟
- أين هم وأنا أذهب لأعطيهم المال؟

- وما أدراني أين هم؟ ألا تعتبرني سيادة السكرتير من أفراد المنزل؟
- أنت تعلمين كل شيء وهنالك خطب، فما الذي غيّبك عنهم إذاً؟
- نعم هنالك أمر وخطير أيضاً، سأخبرك به لك شرط ترك حقيبة المال معي.
- قولي.
- هات الحقيبة.

ألقى"سمير" في حجرها الحقيبة،فتلقفتها محتضنة إياها.

- "سهيلة" قطعت إصبع قدمها، وهي في المشفى، مشفى دكتور وصفي، ولا تسأل عن العنوان؛ لأني لا أعرفه.

- 3-

في المشفى هرج ومرج، وصوت ابتهاج واحتفال، كان الكل مرضى وأطباء وممرضين وعمال يحتفلون، علقت الزينة والبلالين في كل الحجرات ماعدا حجرة "سهيلة"بناءً على رغبتها. نعتت "سهيلة" المشفى بالفخ، ومن فيها بالحشرات الطفيلية التي تتغذى على غيرها، وجب على المريض إذا شفي أن يقفز فرحاً ويقول: أنا واحد من هؤلاء البلهاء، الذين يظنون أنهم كلما دفعوا مالاً أكثر سيبعدون الموت عنهم خطوات أكثر.

جالسة فوق فراشها تقرأ السقف كانت تلك هي حالة "سهيلة"، وعلى السقف نقشت مشاهد حكايتها مع "بدر" زوجها الأول الذي انتهت حياتها مع انتهاء حكايتها معه، مع أول قطفة للزهرة تموت، فلا يمكن إعادة زرعها، ولو غرسوها في التربة مرة أخرى، قسمت السقف لأربعة أقسام، كل قسم فيه ضمّ مشهداً.

المشهد الأول

مراهقة في الثامنة عشرة من عمرها، تتأبط دفاترها تشبك حولها ذراعيها، وسط مجموعة من الزميلات، أكثرهن خجلاً، تبتسم ابتسامة خفيفة لا تفارقها، لا تبادلهن الحديث المرح الخفيف بما يناسب أعمارهن المشعّة بالطاقة والحيوية، ولم تكن لتبدي رأياً الا بالكاد، أو

ردّ فعل نشط اللهم إلا نظرة كسرة تطل من عينيها يحسبها الناظر إلى وجهها أنها فقدت عزيزاً منذ فترة ليست بالبعيدة، سريعاً تشعر بالضجر، والملل وتنتابها الكآبة والجزع من عدم قدرتها على التواصل مع قريناتها، فتسحب صديقتها الوحيدة والمقربة "زينة"مبتعدة بها.

الصديقة على عكس "سهيلة"، لعلها لهذا السبب اختارتها "سهيلة" صديقة حميمة لها، إنها مرحة ومتحررة واجتماعية، متحدثة وماكرة، بينما "سهيلة" كئيبة ظلامية منطوية على ذاتها قليلة الكلام تظهر طيبة وخبل، دائماً باردة الأطراف ومرتعشة، و"زينة"فتاة أردنية تدرس في جامعة القاهرة، والدها أردني الجنسية، ووالدتها مصرية، وهما منفصلان، تعيش "زينة" مع والدتها إلا أنها في أوقات زيارة الوالد تذهب للعيش معه.

ومع الظروف المتشابهة بين الصديقتين إلى حد ما فكلاهما قد انفصل والداه، السبب الآخر ربما لاختيار "سهيلة"، بتأكيد كلمة اختيار لأن تكون "زينة" هي الصديقة الوحيدة والمقربة. إلا أن "زينة" كانت طبيعية أكثر وأقرب لهؤلاء ممن عاشوا في جو أسري صحيح وصحي، الفارق الأساس في وضعهما أن "زينة" لم تفتقد واحداً من والديها، داخل"سهيلة" كانت تشعر بحقد اتجاه صديقتها، ليس لأنها غنية أو لأنها منفتحة أكثر، ولا لأي سبب سوى اهتمام والدة "زينة" بها،

بالعلاقة التي جمعت الأم وابنتها، تلقي عليهما نظرة الغيرة إذا ما صادف أن جمعتها بهما مصادفة، يغطيها الصقيع، ويقرقع الرعد بقلبها، ويهطل المطر، ألم معصور في حشاياها فترتعش من الداخل، تفكر ماذا لو تحولت لشبح، واستطاعت التسلل ذات ليلة إلى منزل "زينة" وخنق والدتها بالوسادة أو طعنها بالسكين، وبعد اللقاء ترجع "سهيلة"إلى المنزل، تهرول إلى حجرتها، تخرج بكرة الخيط، وتنسل منها خيطاً تربطه حول إصبع يدها إلى أن تتجمع الدماء، ثم تغرس دبوساً عدة مرات متلاحقة في موضع اختناق الإصبع.. كانت تلك بدايتها مع أذىالنفس، بداية بوخز الإصبع بدبوس انتهت ببتر الإصبع كله.

المشهد الثاني

يوم مكدس بالمحاضرات، ثلاث محاضرات لا يفصل بين الثانية والثالثة أي زمن، ويفصل بين الأولى والثانية ساعتان، وقدر في هذا اليوم أن ألغيت المحاضرة الثانية، وهذا يعني أربع ساعات فارغة، الصدف دائماً تمهد للقدر،تقترح "زينة" أن تستقبل "سهيلة" في منزل والدها القريب من الجامعة، ولأن والدها كان في إجازة، فكان من الطبيعي أن تنتقل "زينة"بكل ما يخصها إلى منزل الوالد.

هنالك ومنذ أول نظرة تجاه والد صديقتها، وسوست لها ضغائنها الخفية أن تسبب الألم لـ"زينة" بطريقة أخرى غير قتل والدتها، ارتدت

صفات لا تشبهها، لكنها كانت متقنة بالنسبة لها كأنما عاشت عمراً بداخل شخصيتها الجديدة، لقد أصبح لها رفيق تغازله وترسل له برقيات التوق والصبابة، تتنقل بين فنون الغواية كراقصة باليه، تارة تشد حبل الوصل حتى يصلها به، وتارة تقطعه فيلهث هو لالتقاط أطرافه، ترتب موقفاً مفتعلاً من أجل رد فعل معين، كأن تنتقد نفسها أمامه في كونها تعلقت به، وهو الشيء الذي لم يكن ليحدث أبداً وتأخذ قراراًإما بإنهاء كل ما كان وما سيكون، وفي الغد تكتب في حالتها على الفيس بوك أنها مريضة، ولما يرسل لها سلاماً تدّعي أن الاشتياق أمرضها، وأنه ما كان ليتركها ولو تركته، فيحنّ لها قلبه، وكأن تستدرجه محفزة فيه صبا الشباب الماضي ورعونة طيشه، وحينما ينساق تصده فتتركه كالمعلق بالحبل وسط بئر لا هي أدارت بكرة الحبل فرفعته، ولا هي أخلت يدها فأغرقته.

ولما رفع الرايات البيض، وظهرت عليه علامات غياب العقل وحضور الوجد،عرضت عليه عرض الزواج مقابل شقة وسيارة ومبلغ في البنك، وقلادة كان أهداها لابنته "زينة" يوم ميلادها، وكان ذلك أصعب شرط،إلا أنه نفّذه، خلع عن ابنته القلادة، وألبسها لـ"سهيلة" في نفس الزمان والمكان، وأضافت من ضمن البنود ألا يزيد أجل الزواج على شهر.. فـ"سهيلة" لم تبغِ زواجاً بل ألماً تُحدثه لصديقة

العمر تشفي به حقدها،وليتساوى بعده الاثنتان من حيث الخذلان والنقص.

المشهد الثالث

الغريبة أنها لم تشعر بلذة الانتصار، حينما رأت نظرة القوة في عيني صديقتها لتنهزم أمام صلابة مشاعرها، لقد توقعت من "زينة" أن تنهار وتبكي متألمة، أن تتلوى غاضبة،أو أن يتربع الأسى فوق وجهها،إنها لم تبدِ رد فعل أكبر من أن أخرجت من حقيبتها بخاخاً يعالج ضيق التنفس وأزمات الربو، استنشقت منه ثلاث مرات، وبعدها رحلت في هدوء، تاركة الزوجين يمضيان بقية شهر العسل الذي كان محبراً بالنيلة الزرقاء.

المشهد الرابع

طلاق مبكر بعد شروعها في قتل زوجها، ثم لا شيء سوى المزيد والمزيد من الألم.

اتجه فؤاد ببصره نحو ابنته يتفحصها، ويتفحص السقف الشاخصة فيه.

- أتشعرين بالحر، نشغل التكيف؟
- لا بالعكس.
- فيمَ كنت تفكرين يا "سهيلة"؟

- وهل ستفهم قصدي إذا شرحت؟ عموماً كنت أفكر في أنه لابد من أن تقوم حياة أخرى بعد الموت،إننا نحيا لنعاني الشقاء الخارجي والداخلي، لكن بعد الموت ستكون الحياة أيسر؛ لأنه لن يسهم فيها آخرون في جعلها أتعس.

ضحكت في رقة توحي بسخرية.

- ماذا يضحكك؟
- إنني منذ زمن لم أضحك.. لقد أوشكت أن أكون عجوزاً أليس كذلك يا بابا؟
- أنت في ريعان شبابك يا "سهيلة".
- لكنني أشعر بالعجز، كأنني وُلِدت في خريف عمري، ولم يمر بي ربيع أو صيف.

قالتها ثم راحت تغوص بجسدها في السرير تسحب نفسها إلى الأسفل حتى استقام جسدها وتعامد وجهها مع السقف لتعاود الحملقة فيه.

صمت الوالد.. أراد أن يفاتحها في أمر نفقة وتكاليف حجزها بالمشفى، إن معاشه بالكاد يغطي مستلزمات المنزل الرئيسية والفواتير، دقائق مرت بعدها رمت "سهيلة" لوالدها طوق النجاة.

- ستكون ليلتنا الأخيرة هنا، ومن الغد سنرحل إلى المنزل، أي حسابات للمشفى والعلاج سأتدبرها بنفسي.

- أنت تعلمين أنك...

قاطعته:

- أعلم أن معاشك لا يكفي مسئولياتك يا والدي.

وقع كلمات ابنته كان قوياً وقاسياً، دمعة من عينيه سريعاً لحق بها بطرف إصبعه، قبل أن تنحدر من مقلتيه،في حركة مصطنعة أيدها بتثاؤب، ثم مسح بكفيه وجهه، ولكن "سهيلة"لم تكتفِ، فطعّمت حديثها بعبارة قالتها في الواقع دون قصد، لكنها رشقت قلب الوالد.

- يقول نابليون بونابرت: "إن ما يبنيه الرجل في مائة عام تستطيع المرأة هدمه في يوم واحد". هكذا فعلت امرأتنا ليلتها.
- ألا تنسين يا "سهيلة"؟
- لا لن أنسى.

انضمّت لهما "سندس" آتية بصوت خشخشة عدة أكياس كانت تحملها منحلوى وشيبس توزع منها على الطفلين، ملقيةً تحية مستعجلة على أختها ووالدها:

- أهلا بابا، كيف حالك "سهيلة"؟

استنكر الوالد فعل ابنته الكبرى.

- أنت تضرينهما.
- اتركها يا والدي، بل هي تظن أنها تعوضهم ما حرمته إياهم.

لم تكن "سندس" تتقبل كلام أو نقد "سهيلة" بأي شكل، لا تسكت لها حتى ترد وتباريها في الكلام ثم تهزم من بعد،ف"سندس" كامرأة شابة تبدو كأنها طفلة متنكرة في هيئة امرأة، خفيفة الروح طيبة القلب والنية، ممن يطلق عليهم "ما في قلوبهم على ألسنتهم"، وهي في ذلك كثيرة الاتهام بطول اللسان، ومع ذلك لم تكن لتترك مكاناً دون أن تطبع عليه بصمتها الخاصة، فهي صاحبة واجب، كريمة على الغير بخيلة على نفسها، مميزة بالجدعنة وحسن الرفقة، انها طيبة وحنون وصادقة ومع ذلك لم يؤذِها في حياتها أكثر من طيبتها وشفافيتها، فسواء أن كان لها دخل أم لا بأي مشكلة في محيط عملها أو علاقاتها بين الأقارب والأصدقاء والجيرة فإن أصابع الاتهام كانت تشير إليها وحدها، لا تجيد الدفاع عن نفسها لأنها لا تعرف كيف ترتب الكلام فيضيع حقها هباء، وكان لها نفسا جوانية أخرى تجذع وتغضب فتستحيل مشاعرها لغضب مكبوت ينتج عنه خروج طفح فوق سطح جلدها واضافة لاصابتها بالبوليميا، **مرض شراهة الأكل أو الشره المرضي للأكل، بمعنى آخر وصل حبها للطعام حد الادمان دون ادراك أو وعي، أو مراقبة، تطلق غلها في التهام كميات كبيرة من الطعام، ثم تقوم بعد ذلك بالتقيؤ عبر ادخال ابهامها في الفم متعمدة، خوفا من اكتساب الوزن، تكرر هذا الفعل مرات عديدة في اليوم، وسندس كانت نحيفة بشكل ملفت ومصابة بالانيميا**

**وانخفاض الضغط ومشاكل في المعدة والمريء فكلما تناولت طعاما أفرغته على الفور، ومازالت تأكل وتأكل ولا تنفك الى درجة تفوق الشبع الى حد الشعور بالتخمة والاشمئزاز من نفسها ومن ثم الندم على ما التهمته، تأكل بشكل غير طبيعي مقزز وطريقة فاضحة تتمثل بالأكل السريع بالأيدي بشكل عشوائي دون مضغ أو تلذذ وتذوق لنكهة الطعام .** .. استرسلت "سندس" في الكلام:

- **ماذا تقصدين؟ وماذا الذي أحرم ولديّ منه؟**
- **تحرمينهما من والدهما.**
- **على الأقل أعوضهما.**
- **الحلوى مقابل والدهما! يالها من صفقة!**
- **ليس شأنك، وقت ما تتزوجين ويخونك زوجك أجيدي حينها أنت عقد الصفقات.**
- **ومن قال لك إنني سأتزوج؟**
- **صحيح أمثالك لا يتزوجون، أقصد قد يتزوجون ولكن لا ينجبون.**

**- كفى**

قالها الوالد ناهراً ابنته الكبرى،ثم أمسك بيدها وباليد الأخرى أحاط ظهر الطفلين يدفعهما للخارج برفق، أغلق باب الحجرة على "سهيلة"، ثم همس بصوت خافت مقترباً قريباً من أذن ابنته الكبرى:

- راعي حالتها النفسية يا "سندس"، أتعلمين ما معنى أن تخرج فتاة للحياة معيبة، أيّ رجل سيتزوج فتاة ينقصها إصبع قدم، وأي إصبع يا ابنتي إنه الإصبع الكبير، إنها مأساة.

في الداخل اعتدلت "سهيلة"، جالسةًتحدّث اكتئابها مرة أخرى في رسالة:

اكتئابي الغالي

لتعلم أن رفيقتك ليست بشريرة، إنها فقط حزينة، وحزنها أسود، أعلم أنني متهورة أبدو كفتاة شجاعة لا تهاب شيئاً، ولكنني من الداخل إنسانة ضعيفة، لا أحب الظهور أمام الناس بضعفي، أخجل منه أحياناً، وأحياناً أخاف. وبداخل غرفتي أخلع كل دروعي،تسيّجني الجدران الأربعة، وعندئذ وحينما أتأكد بأنني وحيدة أبكي، أجلد نفسي باللوم والعتب، وأظل على حالي هذا حتى يطرق على بابي طارق، فأنتفض منتصبة مرفوعة الرأس؛ لأبدو كالواثقة من نفسها.

عزيزي الاكتئاب، إنني أفهم ما تقصده أختي حين قالت: قد أتزوج ولكن لن أنجب،إنها تذكّرني بأولى تجارب حياتي العاطفية أو قل

المأساوية، حين أخترت الرجل الغير مناسب، حسناً لم أحبه، مثّلت أنني أحبه في مرحلة أولى من مراحل عمري، زواج متعة عمره شهر ما كان فيه سوى المحنة، وما كان لأحد أن يقف أمام طموح الفتاة المراهقة في امتلاك سيارة ومبلغ في حساب البنك، تعوّض بالمال ضعفها واهتزازها.أما السيارة فقد تعرضت بها لحادث كاد أن يودي بي، وأما حساب البنك فقد اشتريت به نعاماً، نعم نعاماً، لقد تم الاحتيال عليّ في مزرعة نعام..ثم خرجت النعامات ولم تعد.

المخلصة/ سهيلة

-4-

بداخل كافتيريا قسم الجراحة الموجودة به "سهيلة"في المشفى.

بينما كانت "سهيلة" تركض في الممرات وقت عصبيتها، كان "طه"يحمل فوق صينية عدة أكواب شاي، وهو يدندن أغنية قديمة اللحن، وهو في طريقه لحجرة الأطباء، أثناء ذلك ارتطمت به "سهيلة"، فوقعت وأوقعته، ونجت صينية الشاي التي تلقفها منه شخص ما في حركة بهلوانية، أثناء سقوط "سهيلة" انسلت منها قلادة ينتصفها حجر كريم أصفر على شكل قلب، تناول "طه"القلادة ليردها لها، لكنها ما لبثت أن فرّت مثل صاعقة بسرعة كبيرة كمذنب خاطف، فاحتفظ بالقلادة في جيبه ومضى.

في اليوم التالي، عزم طه ألا يرد لها القلادة حتى يستفسر عن ظروفها كلها؛لأنه شخص فضولي بطبعه، وهي فتاة مثيرة للفضول.

في البوفيه كان "طه" ينتظر من زميله "عبدالرحمن" أن ينهي إعداد القهوة متكئاً بظهره على حرف رخامة مستطيلة أخذت طول الحجرة، يسترجع الثواني المعدودة التي تقابل فيها مع "سهيلة"، ثم سأل صديقه:

- كيف حال المريضة التي كانت تحاول الهروب أمس؟

- لم أسمع جديداً، ولكن فيما يبدو أن حالتها مستقرة.
- ترى ما مرضها؟
- لا أعلم، ولكن إن كنت تريد الخبر اليقين فهو عند "جهينة"، ومن حظك أنها الممرضة الخاصة بحالتها، انظر إنها واقفة هناك ستأتي الآن وتطلب شاياً.

بالفعل تأتي المرأة وتطلب الشاي،وبعد حوارات وجدل طويل مع كل عمال الكافتيريا كعادتها وصلت لـ"طه"أخيراً، ناكفته بإلقاء تعليقات ساخرة على نحافته وطوله المبالغ فيهما، وبعد شد وجذب عقد معها هدنة.

- "جهينة" لك الشاي على حسابي اليوم.
- وما هذا الرضا أيها الكريم؟
- اليوم جاءني هاتف يقول: أكرِم "جهينة" يا "طه"!

رفعت المرأة حاجبها مركزة نظرها بداخل عينيه، ثم ابتسمت على جانب واحد، ولم تنطق بكلمة، فعاجلها "طه" بالسؤال.

- ما أخبار هذه المريضة المستجدة التي أحدثت ضجة أمس، وانقلب على إثرها المشفى كله؟
- جيدة.
- ما مرضها؟

- قطعت إصبع قدمها.
- لماذا؟!
- ومن يفعل هذا سوى.....

ثم حركت يدها نصف دائرة إشارة لمغزى الكلمة الناقصة.

- ما اسمها؟
- اسمها "سهيلة".
- خذي هذا شايك، صحتين وألف هنا.
- تسلم يدك.

تناولت كوب الشاي، وراحت تشربه أثناء مشيها.

منزله يقطن في المقطم.. وليصل "طه"إلى منزله عليه أن يسلك رتلاً طويلاً من المواصلات يبدأ بالمترو وينتهي بالتوكتوك، كثيراً ما سأل نفسه لماذا لا يأتي الفقر إلا بتبعياته، يتيم وأخ لمريض، إنه تجاوز الثلاثين بعامين، وبرغم ذلك بالكاد يؤمّن حياته، يحلم بالسفر، ولكن لمن يترك أخاه، يحلم بالحظ وبالصدف ويحلم ويحلمويحلم...إن حياته مجرد حلم كبير، وواقعه فيها هو الجزء الأصغر.

وحلمه يسكن غيمة في السماء، لا يستطيع أن يلمسها إلا بالموسيقى، قطعة السكر التي يعطيها لنفسه بعد كل مرارة، مرارة فقد الأب ثم الأم ثم الأخ المريض من صغره بالكبد، والذي علاجه الوحيد لم يكن

سوى الصبرأو عملية تكلّف مئات الألوف، إلى متى الصبر يا طبيب؟إلى أن يتليف كبده كله وينفذ أمر الله، يا إلهي ألا يكفي أن نصبر على الحياة، أنصبر أيضاً على الموت؟! لنعزف قليلاً يا أخي بعض الألحان، أعطني الناي وغني.

وضع "طه" العشاء لنفسه،ولـ"ياسين" أخيه.

- ألن تتزوج يا "طه"، لا تعيرني بأنني حمل فوق كاهلك ثقيل؟
- أتؤمن بالقدر يا "ياسين"؟
- بالطبع.
- أنا أنتظر من القدر كل شيء مادام ليس باليد حيلة.
- "نوارة" تحبك، يوم أصبت بحالة تسمم الأسبوع الماضي رأيتها تبكي عليك، إن طعامنا أغلبه من صنع يدها.
- جميعنا من الممكن أن يبكي لتألم آخر، أن نشفق على الغير بالطعام والحنان، إنه مجرد قاسم مشترك بين كل البشر الذين يملكون قلباً عاطفياً طيباً،لكن الحب مختلف،فلو أنها تحبني لكنت أنا أيضاً أحببتها، والحب الذي هي تقصده غير الذي أنا أقصده، أعني أن أشعر أنها مني، في نقل الدم مثلاًإذا لم تتوافق الفصائل تضرر الإنسان، وارتبكت وظائفه الحيوية وربما مات، وهذا هو الذي سيحصل إذا تزوجت بـ"نوارة"، إن دمي ليس من دمها،أحبها ولكن لاأراها قدري.

- ماذا يريد الرجل في الدنيا سوى زوجة مطيعة وهادئة وراضية؟
- أليس من الظلم إجحاف إرادتها هي أيضاً في زوج راضٍ عن شراكته معها،إنني مؤمن بأن لي شريكة وزوجة فوق هذه الأرض، ولكننا لم نلتقِ بعدُ، شريكتي الآن في مكان ما تقوم بشيء ما، تفكر بأمر ما، ربما نائمة أو تتناول الطعام مثلي، ربما تضحك، ربما تبكي، ولكنني أياً كان حالها فأنا أشعر بوجودها.

آوى "طه"إلى فراشه، ثم تذكر القلادة الصفراء، فرجع إلى المشجب حيث علّق ملابسه، وأخرجها من جيب البنطال، فكّر في أنه لا بد وأن صاحبتها تحب اللون الأصفر الكناري، وضعها أسفل وسادته، وفتح تليفونه يبحث في "جوجل"، صفات من يحبون اللون الأصفر،ظلّ يقرأ وينقب ويحلل حتى غفت عيونه على صورتها وهي ترتطم به، كان من السهل عليه اكتشاف معاناتها من تشتّت تركيزها؛ فهي لم تنظر للشخص الذي أوقعها كما هو متوقع، بل كانت تنظر للأمام نحو الطريق الممتدالذي بلا نهاية.

استيقظت قبيل المغرب كعادتها، بالتدريج تندمج مع الحياة بفنجان قهوة وسيجارة، ثم الحمام تنقع نفسها في البانيو بداخل الرغاوي، تقوم بروتينها اليومي في معالجة بشرتها، ثم إلى الجحيم.

الملهى الليلي الذي ورثته عن زوجها الثاني، والذي لم تستمر حياتها معه سوى ثلاث سنوات ومن بعده تزوجت العمل، كانت ترقص إلى أن اعتزلت منذ عامين، حينما أصيبت بانزلاق غضروفي، وقررت الاكتفاء بأشغال الإدارة،إنها تحب الرقص، ولا شيء يدعوها للرقص، لا المال ولا الشهرة سوى أنها تحبه، تؤكد دائماً أنها بدونه لم يكن لديها شخصية، لقد أعطاها الرقص القيمة لنفسها،برغم أنه أنزلها درجات في السلم الاجتماعي، في حوار قالت:

- أشعر حينما أرقص أنني أسلّم جسدي متضرعاً للموسيقى دون تدخل مني، أكون معه عادلة مع نفسي وصادقة مع الله، وذلك عندما يتهمني الناس بمهنتي، أنا راقصة، حسناً، ولكنك مرتشٍ وسارق وظالم ومنافق ومتحكم في إيذاء غيرك، أنا أرقص، ولكني لست المتحكمة في غرائزك، أنت من توقع نفسك في الغواية، الأمر بسيط، لا تلهث ورائي وسوف تُعصم.

اتخذت "نادية" لها مكتباًفي الطابق العلوي، يشرف على الكازينو عبر لوح زجاج كبير، تراقب منه مملكتها، تدوّن كل الأخطاء التي استطاعت اصطيادها، ومنه أيضاً يستطيع شعبها مراقبتها، كانت تلك فلسفتها التي تقول فيها:"نعم أريدهم أن يعرفوا أنني أراقبهم، وأنني أعلم جيداً ما يدار خلف ظهري؛ فالأمان هو المحرض للشر أحياناً".

تسدل الستائر على لوح الزجاج، يشير الجميع لبعضهم البعض أنهم الآن بأمان، أعلنت إحدى الفتيات:

- إنها معزولة عنا الآن.

وصدحت ضحكات الأخريات، مع باقي الموظفين، ثم اقترحت:

- لنمضي كل واحدة منا في مغازلة من رأت فيه وسامة وغنى وكرماً.

علق واحد من الأمن:

- داعرة.

ثم علت مرة أخرى الضحكات، ومع شعور بالإهانة والوضاعة دافعت عن نفسها:

- كلنا في نفس المكان داعرون، هل أنت أتيت لتقيم الصلاة مثلاً؟

مرة أخرى وبصخب أكبر ضحك الباقون، علق الرجل:

- لكنني حينما أتيت لم أكن حاملاً من رجل لم يعترف بحملي.

سكن الصوت، وعمّ السكون بعد قوله هذا، فشعر الرجل بأنه أهانها إهانة أكبر من إهانة السخرية وأعمق من أن يردّ عليها بكلام عادي، إنها ولو كانت تمتلك الآن مسدساً لأفرغته بداخل فمه، وعندما أراد الاعتذار والصفح أجابته:

- اعتذارك يؤكد أنك بالفعل معترف بما أجرمه لسانك، واعتذارك ليس له معنى إلا أنك بعدما طعنتني قررت خنقي، ولكن بخيط حريري.

مضت المرأة إلى حال سبيلها، حاملةً معها ما شعرت به من جرح لكبريائها وإدانة لكرامتها، حسناً، إنها داعرة، ولكنها تحمل كبرياءً هي شديدة الحرص عليه من غيرها، فها هي الفاضلة تحمل فضيلتها، والشريفة تحمل شرفها، والمحترمة من قبل الغير تحمل احترامها، ولكنها لا تمتلك سوى عزة النفس المغموسة في الهوان.

كان الجميع وقد أصبح أكثر اختلاطاً ومجوناً بعدما انفصلت عنهم مديرة الملهى، فوضى المشاعر وعشوائية التصرفات، نفس العالم الخارجي، ولكن بعد أن سقطت عنه قشرة الفضيلة، إنه نفسه السيد المحترم بين موظفيه صاحب الهيبة يلهث ككلب محموم وراء فتاة أهدرت كل خزائن وقاره.

غريبان التقيا لمرة واحدة، وبعد تعارف خمس دقائق يتبادلان كلمة "أحبك"، ثم رتلاً من كلمات الغزل العفيف فالصريح من غير أن تفارق ذراعه كتفها، إنه وضع مشمئز، نشاز مبغض، وذلك من الناحية الإنسانية، ولكن من جانب النزعة الغريزية، والتي فاقت الحيوانات وضاعة؛إذ إن كل نوع من الحيوان يسير حسب قانون فطري، من

الصعب أن تجد حيواناً عشوائياً ناحية تعدد زيجاته،فهو أمر عادي، هو لن يهمها من هي، ولا هي لن يهمها من هو، لن يهمه إن كانت تعاني مرضاً معيناً، أوإن كانت تشعر بالأسى لشيء ما، ولا يهمه ماذا تناولت في الصباح، وما هو عملها، وما الألوان المفضلة لديه، وهو كذلك نفس الأمر، لكنهما اعترفا لحبهما لبعض، وتبادلا أرقام الهواتف وقريباً سيقيمان علاقة، هل هذا بالفعل حب؟! الألعنإذا كانا يصدّقان أن الحب هو كذلك،وبهذا الشكل!!

كانت "نادية" تدرك أن العوالم جميعها تحتاج لرقيب ومانع، وأن الشارع العام ذات نفسه لو أعطي له حرية الملاهي لتحول إلى ماخور كبير؟ إنها نجحت في تربية رواد ملهاها، وإحكام قبضتها على الجميع، استطاعت تعويض غريزة أمومتها كما نسمعه عن أنثى القرد التي ربّت نمراً لقيطاً، أوإرضاع نعجة لصغار معزة ماتت وهي تلدهم، لكن أنثى القرد لم تترك أبناءها والنعجة أرضعت أبناءها أيضاً، إنه السبب الذي عانت لأجله "نادية" طويلاً، فكلما شعرت بتأنيب الضمير مارست أمومتها أكثر في الملهى، عالمها الآخر إن صح التعبير، لكنها ومهما فعلت لم تستطع أن تكون أماً حقيقية؛ فلم ترقَ إلا لوضع راقصة أو سيدة أعمال.

بعد أن أسدلت الستار أطفأت الأنوار، ووضعت السماعات في أذنيها، وغاصت قليلاً في عمق المقعد الجلد ذي المسندين العريضين تستمع لـ"فيروز"، ثم يأخذها الحنين إلى الكوبليه الذي تشدو فيه: "بعدك على بالي".

يرجعها الحنين إلى قبل هذا اليوم بتسعة عشر عاماً، حين رجعت من الحفل على الساعة السادسة صباحاً، فتحت الباب لكن شيئاً ما اعترض طريقه نظرت من خلال الانفراجة اليسيرة، فلاحظت أن طفلتها "سيرين" ملقاة على الأرض خلف الباب، أزاحت ضلفة الباب برفق، ودخلت من أقل مساحة بجانبها،استيقظت "سيرين" تفرك عينيها، وما أن رأت وجه أمها حتى انتفضت قائلة:

- ماما.

تحملها وتضمهاإلى صدرها.

- لِمَ أنت هنا يا "سيرين" ولست في فراشك؟
- كنت أنتظرك يا ماما، لكنك تأخرت.
- تعاليْ معي ننم إلى جوار بعض، أنا أيضاً اشتقت إليك، وكنت أنتظر عودتي إلى المنزل.

تأخذ ابنتها إلى الفراش تحتضنها وندندن لها: "بعدك على بالي يا قمر الحلوين".

بعدك على بالي
ياقمر الحلوين
يازهر التشرين
يا دهب الغالي
بعدك على بالي
ياحلو يا مغرور
ياحبق ومنتور
على سطح العالي
بعدك على بالي
ياقمر الحلوين
يازهر التشرين
يا دهب الغالي
بعدك على بالي
ياحلو يا مغرور
ياحبق ومنتور
على سطح العالي

نفضت الذكرى عن قلبها، أفلتت السماعات من أذنيها، أنارت الأنوار، ورفعت الستائر، جلست معتدلةً أمام مكتبها، وطلبت من الطارق

الدخول. في حجرة مكتبها وقف "سمير" متردداً فيما سوف يخبرها به عن إصابة ابنتها، هل يقول أم لا، إنها هادئة الآن، لكن لا أحد يعلم ما يعتمل في نفسها من مشاعر، لكنه أخيراًحسم الأمر بشكل مباغت.

- مدام "نادية" يؤسفني إخبارك بأن ابنتك "سهيلة" في المشفى.

تلعثم لسانها، بعد أن سقط عقلها في وسط قلبها.

- ليس الأمر خطيراً يا مدام.
- ما هو الذي ليس خطيراً؟ احملني إلى حيث ابنتي.

ولم تستطع ضبط نفسها وهي تهبط من السلم، فانثنت قدمها وتدحرجت حتى آخر درجة، ولكن وبرغم الألم القاتل نهضت تهرول دون شكوى، تترنح وتتخبط في الطاولات والعمال والزبائن، كان الوقت متأخراً جداً حينما وصلت إلى المشفى،والظلام بدأت فلوله تنحسر، أقبلت "نادية" لاهثة الأنفاس نحو"فؤاد" توقظه، وكان مرابطاً أمام حجرة ابنته"سهيلة".

- ما الذي حدث لابنتي يا "فؤاد"؟ولماذا لم تخبرني فورحدوث الحادث؟

بعدها انخرطت في البكاء، ودون أن يتفوه الأب بكلمة فتح لها باب الحجرة بهدوء، أصدر الباب صريراً خافتاً، خافت معه أن تستيقظ ابنتها، فهي ومع قلقها لا تريد إزعاج ابنتها بوجودها.. اقتربت قليلاً

بتوتر وحذر من السرير الراقدة عليه "سهيلة"، مسحت براحة يدها شعر الابنة القصير والأملس، لا تحرك عينيها عن وجهها المصفرّ، عضّت على شفتيها تكتم تنهيدة خرجت من صدرها، أصابتها القشعريرة حين تلاقت للحظات عيناهما.. ودون أن يحدث شيء.. أعادت "سهيلة"إغماض عينيها.

قبلت "نادية""سهيلة" فوق جبينها، وحين همّت الأولى برفع رأسها رأت دمعتين تنسحبان من مدامع عيني"سهيلة"، فمسحتهما بسبابتها، وهمست في أذنها: "أعلم أنك متيقظة.ولكنك لا تريدين رؤيتي، لا عليك، كما تشائين، ولكن هل أخبرتك من قبل أنني أحبك؟ لا لم أخبرك، ولكنني أفعلها دائماً، فدائماً أنا أحبك". ولّت "سهيلة"بوجهها الناحية الأخرى، ثم غادرت الأم تشعر بشعور كلبة جرباء أبعدت أبناءها عنها؛ حتى لا يصابوا.ولكن الأبناء قد تألموا أكثر.

جلست إلى جوار طليقها في أول لقاء يجمعهما منذ سنوات، صمت ران بدا لها فيه أن الوقت يتحرك كجبل، سكين ندم مغروس في الدماغ وآخر في الخاصرة، وأما الوالد فكان غاضباً، يسأل نفسه عن ملابسها ومظهرها، إن لم تتعامل كأم فعليها التعامل كامرأة محترمة على الأقل، كل منهما رأى المشهد من إدراكه، فـ"نادية" أدركت العمق، بينما أدرك "فؤاد" السطح.

- ألم تجدي غير هذه الثياب تزورين ابنتك بها في المشفى؟
- إنه فستان من نسيج الحرير الموشي بإبر يدوية، وهذا قرط من اللؤلؤ الأصلي، وتلك أسورة ذهبية، أما هذا فجرح في ركبتي غائر -ثم كشفت عن ساقها-أصبت به منذ ساعتين حين سقطت من الدرَج فور سماعي بخبر ابنتنا، وكنت للمصادفة أرتدي تلك الثياب.
- لقد أعطيتك كل شيء أو على وجه التحديد لم أكن أمتلك شيئاً لأعطيه إياك فتركتني وتزوجتِ بآخر.
- لم أتزوج إلا بعد عامين من انفصالنا، ولم أتركك حقيقة لأنني كنت متروكة بالفعل منك، وضعت المنزل فوق كاهلي، ووضعت نفسك بداخله، وقلت لي سيري بمفردك، ثم سلبت مني المنزل وبناتي وتركتني.
- أي منزل كنت سأضعه على كاهل راقصة؟
- وهل تزوجتَ راقصة يا "فؤاد"؟ إنك تزوجتَإنسانة معززة مكرمة لا تخرج من منزلها، ولا تحني أمام أحد رأسها، فتحولت على يدك إلى خادمة في منازل الغير، ما أنا فيه حرام، ولكن حلال إذا ما وضعته فوق كاهل عاملة، خادمة، لو أنك كنت تنفق على بيتك،وتعمل كأي زوج وأب ما كنت خرجت من الأساس من منزلي، ولا عملت لا خادمة ولا راقصة.

وضع "فؤاد" يده فوق كتف "نادية":

- لا أجيد المواساة،ولكنك أمّ ومهما فعلت فقلب الأم لا يتغير.

ضحكت حتى دمعت عيناها:

- تغير مجرى الحديث لترفع عنك الاتهام، حسناً لا بأس، أنا متهمة، ولكن الآن عندي ثلاث بنات واحدة منهن قطعت إصبع قدمها، ألا تخبرك تلك الإشارة أن المرة المقبلة قد تقطع رقبتها؟
- المشفى مصاريفها غالية، و"سهيلة" بنفسها طلبت الرجوع للمنزل،إذا كان عندك طريقة لجعلها تمكث هنا حتى يتم شفاؤها.
- للمرة الثانية تغيّر الموضوع، لا تقلق ستظل "سهيلة" في المشفى، ولكن ما الذي أوصل الفتاة لأن تؤذي نفسها،إنني أنام قريرة العين أنهن في حفظ والدهن.
- لا أعلم ربما غيابك.
- ما دمت تعرف أنه غيابي لما كنت تغسل عقولهم بأفكار سيئة عني.
- لأني كنت أحميهم.
- نعم تحميهم، أتظن أنني لا أعرف شيئاً؟ لمَلمْ تحمِ بناتك حينما تزوجت "سهيلة" ومازالت في عمر السابعة عشرة، وحينما طُرِدت "سندس" من منزلها من قبل زوجها، وحين... أم إنك لا تعلم بصداقة "سيرين"بالديلر؟
- أيديلر؟

- لا تقلق، أزحته عنها دون معرفة عنها، وهي تبحث الآن عن آخر يمدها بالحشيش.

وقف الأب وقد تصلبت عروقه في وجهه..

- اجلس ولا تفعل شيئاً سوى ما أقوله لك، إنه وقت تدخّل الأم في شؤون بناتها، سأحجز نفسي في المشفى مع "سهيلة"، فأنا امرأة مصابة بشجّ في ركبتها، وتعاني من انزلاق في غضروف عمودها الفقري..وللحظ فحتى العمود الوحيد الذي كنت أستند عليه انزلق.
- ربما لأنه فقري، فلما العجب؟!

رفعت حاجبيها ونفثت عن غيظها تهز رأسها يميناً وشمالاً.

- رجل متبلد كنت ومازلت تعاني من كسل في الوعي.

تركت "نادية""فؤاد" بعد أن امتلأت منه بالغضب والحنق، وراحت تعاين المشفى، كانت دائماً ترى أن واجبها معاينة الأماكن والعاملين فيها، إبداء رأيها في كل تفصيلة، لعله عملها هو من أوجد بداخلها ذلك الحس في التدقيق والتمحيص، في كل ركن كانت تقول داخل نفسها: "لا بأس"، "جيد"، "المكان آمن"، ركنت الأمور التي حقا تشغلها جانباً، وانشغلت بدراسة المشفى، إنه ليس أمر "سهيلة" فقط، إن لديها

"سندس" و"سيرين"، وكلاهما مشكلة، لكن لا بأس لتتفحص المكان، وتستكشف أقسامه.

الساعة الثامنة صباحاً،وهو موعد خلودها للنوم، وها هو الصداع ينذرها، رجعت"نادية"إلى قسم الجراحة حيث توجد "سهيلة"، سألت واحدة من موظفات الاستقبال، والتي حدثتها دون أن ترفع رأسها عن الكشف الذي بيدها.

- أريد محادثة المسئول عن القسم.
- دكتور "شهاب" لا يأتي قبل الساعة الثانية بعد الظهر يكون أنهى عمله بالجامعة.
- أريد أن أكشف إذاً.
- ليس قبل الساعة الحادية عشرة، تحجزين دوراً عن طريق الهاتف، هذا هو الكارت، وسوف نحدد لك موعداً.
- أريد إذاً فنجان قهوة أم إنه ليس متاحاً قبل ساعة معينة؟!
- لا فالكافتيريا مفتوحة أربعاً وعشرين ساعة، آخر الطرقة ثم انكسري شمالاً على شمال يدك أيضاً ستجدين ما تشائين ووجبات خفيفةأيضاً.
- شكراً لك.

أخيراً أخرجت الموظفة رأسها من الإطار الدائري للنافذة الزجاجية، وبعد نظرة تفحص لوجه "نادية"، خفضت رأسها مرة أخرى تتابع ما كانت تتمه، وبفضولها رفعت "نادية" نظرها ترى ما الذي كان يشغل الموظفة وبالعظمة ما رأت، لقد كانت تلعب "كاندي كراش"!!رحلت "نادية" وهي تلعن كانديها وكراشها، إن أحداً من موظفي ملهاها الليلي لايمكن أن يمسك هاتفاًمجرد أن يمسد عليه أثناء فترة، فهذا يعني أنه ينتظر خصماً ووصلة من التوبيخ.

بداخل الكافتيريا شخصت العيون إليها، فستانها الذهبي ومكياج السهرات فوق وجهمالم يجعلا مجالاً للهدوء، واحد من العمال علّق ساخراً:

- الرقاصة جت، الرقاصة جت.

فردّت "نادية":

- عظيم لديك فراسة لتتكهن بأنني راقصة!

فانتبه الجميع، مما أثار حفيظة الموظف بعدما أحرجته ليرد:

- سيماهم على وجوههم.

لكن "نادية" لم تكن لتترك ثأرها، فتقدمت نحوه، وهنا خاف العامل متقهقراً خلف زملائه، وضعت كفيها حول وسطها، وقدمت ساقاً على ساق، وقالت وهي تهزها:

- إن الخوف مدرسة يعلّمك كيف تصرفت بحماقة في الماضي، لعلك تعلمت الدرس أيها الشجاع عن بُعد!

- أعتذر نيابة عنه وعن كل زملائي سيدتي.

التفتت "نادية" ناحية الصوت:

- شكراً أيها المهذب.

- اسمي "طه"، ألا أحضرتُ لك شيئاً.

- نعم يا "طه"، أريد أن أعزمك على فنجان قهوة معي.

- بالتأكيد سيدتي.

وقفت "نادية"إلى جوار "طه"، وهو يعدّ لها القهوة.

- أنت مرافقة لأحد المرضى صحيح؟

- نعم هو كذلك، وقريباً سأكون مريضة، وسأحجز غرفة بالقسم.

- لا تبدين محتاجة لحجز.

- بل في أشد الحاجة له لأكون إلى جوار ابنتي.

- هل لي أن أعرف من هي؟

- "سهيلة"إذا كنت سمعتَ عنها.

- نعم سمعتُعنها، إنها المريضة التي قطعت إصبع قدمها.

تنهدت "نادية" مؤكدة أنها هي.

تعجّب "طه" بداخل نفسه أن هيئة الأم مختلفة عن هيئة الأب، فالأب رجل نخر الفقر أخاديد وجهه وأكل من ياقة قميصه، وهي امرأة منعمة مرفهة، فاستنتج أن الاثنين منفصلان، وكل واحد له عالمه.

- ها هي القهوةقد أعدّت.. تفضلي.
- شكراً.
- من الممكن أن ترشفيها في حديقة المشفى إذاأردت،فالمكان هادئ وبعيد عن المتطفلين.
- لا فأنا أكره الضوء، سأكون انتهيت منها وقت وصولي إلى حجرة ابنتي، سعيدة بمعرفتك يا "طه"، خذ هذا البقشيش لك.

تناول "طه" المالدون تردد.. علام الكذب والتجمل؟إنه يحتاج للمال.

في حجرتها، وبعد رحيل والدتها، وضعت "سهيلة" راحة يدها فوق قلبها تهدئ القلب المضطرب، إن الماضي يختبئ خلف الستار يلوّح له أن تتبعه، يخرج من وراء الستار، يقف على حافة النافذة، يشير لها فتذهب إليه، يمسك بيدها ويقفز.

- أمكم رحلت.
- إلىأين يا أبي؟
- إلى نفسها.

يغيّر الأب كالون الباب، ويُحكم غلق الباب، لماذا يُحكم الغلق إن كانت هي التي رحلت؟ فليتركه مفتوحاً إذاً، فمن يرحل من تلقاء نفسه لا يرجع.

بعد أسبوع ترى "سهيلة" أمها تسير إلى جوارها في الشارع المقابل، وهي في طريق ذهابها إلى المدرسة، لكن لا تحدّثها، تقابلها أمام المنزل يوم العيد، لكن تهرب منها، يحكي عنها والدها أموراً سيئة جعلتها تكرهها.. لقد تركتها.

يتركها الماضي معلقةً في الهواء، ثمة ماضٍ يهوي بك وآخر ينتشلك، تنتشلها كل ليالي البكاء والوحدةالتي تألّمت فيها بمفردها، حينما انقسمت وتبعثرت كقطع بازل، وكان عليها إما أعادت تشكيل نفسها أو الموت،إنها لا تريد خسارة نفسها، كادت ستسقط نفسها وراء الماضي، لكنها انتبهت، إنها تقف الآن فوق سور الشرفة الذي لحسن الحظ كان عريضاً، فكرت أنه لابد وأنها قطعت إصبعها في حالة من اللاوعي كتلك.

نظرت لأسفل، بدأ اتزانها يختلّ، إنها على بُعد أربعة أدوار علوية، ازدرأت ريقها وجمّدت نفسها علها تعطيها ثقلاً يضمن اتزانها، كيف ارتقت إلى سور الشرفة؟ لابد وأن هنالك ما ساعدها كطاولة أو

كرسي، لكنها خافت أن تلتفت فتنحني ويختلّ توازنها، هل تهتف وتستنجد بأحد؟ لكن ربما يهتز مع أحبالها الصوتية جسدها كله.

كانت "نادية" في طريقها لحجرة "سهيلة"، أنهت قهوتها، وظلت تبحث عن سلة قمامة تضع فيه الكوب الورقي الصغير، حتى تصادفت بأحد العمال فأعطته الكوب، لكنها تاهت عن العنبر الذي تأوي أحد حجراته ابنتها، فالمشفى مصمم كدهاليز متصلة ببعضها،مما يثير التوتر لهؤلاء من يرافقون مرضاهم، وليس لديهم خبرة بالمكان، ظلت تدور حتى وجدت أخيراً القسم، فتنفست الصعداء، وقتها كان لـ"سهيلة" قرابة الربع ساعة.وهي متسمّرة على وضعها، وقد فعل اليأس فيها ما فعل، فتسرّبت منها دموعها فوق وجنتيها، وقد استحال وجهها من الخوف إلى اللون الأزرق، فكّرت أنها لو تحركت خطوات ناحية اليمين أو اليسار لأمكنها الوصول إلى الحائط ومن ثم الاستناد إليه والالتصاق به، لكن الوصول نفسه استحال، فهي تقريبا قد تصخرت بالفعل، ليس أمامها سوى حل واحد، فإذا كان الاندفاع إلى الأمام يعني الموت فلتدفع نفسها للخلف، فيكون لديها احتمال للنجاة وعليها أن تقرر الآن.

أمسكت الأم بمقبض الباب في اللحظة التي ألقت"سهيلة" فيها بنفسها للخلف محدثاًارتطامها صوت قرقعة مرتفعة، فقد سقطت على الكرسي الذي بالتالي هوى بها مرة أخرى إلى الوراء.

توقعت "نادية" أن "سهيلة" ربما شنقت نفسها، فصرخت:

- سهيلة.

لم تجدها داخل الحجرة،لكن أنيناً ارتقى لسمعها آتياً من الشرفة، فعرفت أن ابنتها تعاني خطباًما،، ولسبب ما انكمشت فقرات ظهر "نادية"، وشعرت بتنميل في قدمها، إنه ألم الظهر حين يباغتها يحدث لها شللاً وقتياً فراحت تهتف:

- "سهيلة"، أخبريني هل أنت بخير؟"سهيلة".

حين سقطت وقع ثقلها كله على كوعها فشعرت بانخلاعه، وعلمت أن أحداً دخل الحجرة، ولأنها نسيت صوت أمها،وبالتالي استنتجت أنها إحدى الممرضات، فطلبت العون بصوت ضعيف:

- ألا ينقذني أحد.

أدركت "سهيلة" أن لديها مشكلة تجعلها تؤذي نفسها دون وعي، ولكن اعتقاداً راسخاً في عقلها كان يقول لها: عليك حل مشاكلك بنفسك دون الخضوع لعلاج أو مساعدة ممن هم حولك، لذا قررت التكتمعلى معاناتها، وأن تبقي الأمر سراً بينها وبين نفسها.

كانت الأم تئنّ من الألم بالداخل، وكانت الابنة ترد بنفس الأنين بالخارج. تحاملت "نادية" على نفسها، وراحت تزحف باتجاه الشرفة، حتى وصلت حيث "سهيلة" ملقاة، اقتربت منها وقالت:

- ها أنا جئت.

فأجابت "سهيلة":

- كعادتك تأتين متأخرة.

ثم سكنتا إلى بعضيهما تظللهما غيمة كوّنها أنينهما وغضبهما وأحزانهما وتمردهما ومأساتهما، فهل ثمة سبيل لاستدعاء من يساعدهما، ابنة أخرى معافاة، أو أم أخرى قادرة؟

-5-

راجعت الاسم أكثر من مرة،إنه نفسه الملف الشخصي على الفيس بوك باسم "قمر الزمان" تحادث "طارق محمود"، تضحك ثم ترجع للتأكد، فترجع وتضحك، ذهبت "سيرين"لأختها المشغولة بإطعام الصغار.

- قمر الزمان، ألا تكرمتِ بغسل الأطباق بعد إطعام أبنائك؛لأنني لست خادمة ولي العهد وولية العهد البرنس "مهاب"والكونتيسة"فريدة".

برقت "سندس" حين رأت "سيرين" تحمل الهاتف تلوّح لها به في حركة استفزازية.

- من أذن لك بأن تمسكي هاتفي؟

وبعدها راحت "سندس" تشد شعر"سيرين"..

- اتركيني يا ظلمة الزمان، من أخبرك بأنك قمر، هل تتجنين على الأقمار والمجرة الكونية بأكملها.
- حقيرة.
- بل أنت، من قال لك أن تمسكي هاتفي؟

وضعت "سندس"يدها فوق فمها ترفع حاجبيها، كيف لم تلاحظ؟

- ولو..أيضاً حقيرة، لقد استلبت غطاء هاتفي، وجعلتِ الأمر يلتبس عليّ.

- ولماذا تحادثينه باسم مستعار يا جبانة؟

ألقت "سندس" بنفسها فوق الأريكة، واضعة يدها على خدها:

- لأنني اشتقت له، ولا سبيل لمحادثته سوى بادّعاء أنني لست أنا.
- هل أنت غبية، إنك تحرضينه على خيانتك مرة أخرى.
- على الأقل يخونني معي، وأنا من أملأ حياته في غيابي.
- غريب وضعكما، وأتساءل:لماذا يحب الرجل زوجته مادامت ليست زوجته؟ربما يكون الحب أعمق دون إلزام، إن عقد الزواج تنضم فيه الفروض والواجبات لتعزز حالة الاختناق، إن الحب الذي يتبادله الناس دون شروط يوحي بالأمان، والأمان يوحي بالاستمرار، العقد ولو كان عقد بيع وشراء مقلق يجعلك ترى من خلاله محاكم وقضايا وقضباناً، ثم على حين غرة يأتي الفراق مسبوقاً بخيانة وملل وضجر ونزاع، لا، لن أتزوج في حياتي.
- ليس كما تعتقدين، كل ما في الحكاية أن الاقتراب من الإنسان يجعلك ترى عيوبه أكثر ونواقصه، والاقتراب يزيد من فرص التلاحم والتشابك والخناق، أما في البُعد تكون الصور أجمل، هاتي لوحة زيتية وأخبريني أي جمال قد ترينه فيها إذا ما اقتربت بعينك ودققتِ في الألوان، ولأننا نكون عاشقين فقط، لا مشاكل، لا هموم، ولا فضفضة بعتاب هذا ما أفعله مع "طارق".

- لو كنت أحب اللوحة لاقتربت منها لحب اكتشاف كل لون فيها وكل خط متعرج لرأيتها من على قرب ومن على بعد ومن فوق وأسفل ومن كل الجوانب.. الفكرة أنكما لم تحبا بعضكما من الأساس، وجاء العقد ليزيد الطينة بلة.
- إذا صح كلامك فإن عقد الزواج مع الحب سيشبه أحد الجوانب التي ستتقبلينها في لوحتك الغالية أيضاً؟
- .....

صمتت، وقد اكتنفتها الحيرة، واستولى عليها القلق، ومن بين شفتيها الصفراوين قالت "سندس":

- وفي الحقيقة لا أعلم ما الذي ورطت نفسي فيه، لكنه يعشق "قمر"وبدأ ينسى "سندس".

- ماذا لوطلب محادثتك، صورتك.
- لا أنا مهذبة، لا أعطيه سوى الكلام.
- ونعم الأدب، وما حالتك الاجتماعية يا قمر الزمان؟
- أرملة ودون أبناء.
- قتلتِه يا "سندس"،وأكلتِ"مهاب" و"فريدة"!

ثم ضجّت"سيرين" بالضحك وهي تضرب كفاً بكف خارجة من الحجرة، فلحقتها "سندس" تخطف منها الهاتف، تمسح حسابها من

عليه، وعلى وجهها بانت ملامح كل عذابها معه طيلة سبع سنوات، تتذكر المواقف والأفعال.

- "طارق" تعال لنذهب إلى الحديقة ما دمت إجازة اليوم.
- جهّزي نفسي والأولاد إذاً.
- لماذا تذعن لي طائعاً كأن حياتي معك واجب تود إنهاءه، كأنك آلة أو روبوت؟
- إذاً لا ذهاب إلى الحديقة، ولا خروج اليوم من الأساس.

تبكي "سندس" فيعقّب "طارق":

- ابكي يا "سندس"، واندبي حظك العاثر وحظي معك.
- لست أبكي من أجل مسألة خروجنا، إنماأبكي؛ لأنك لم تسألني لماذا أبكي من الأساس، ولو سألت لقلت لك بسبب إهمالك، أنت لا تفهمني يا "طارق"، ولا تحاول فهمي حتى.
- حقيقي أنا بالفعل لا أفهمك، ولكي أفهمك أحتاج لفتح المندل وزيارة الدجالين، وكذلك أنت من أجل أن تفهميني تحتاجين لجراح مخّيفتح رأسك ويبدل عقلك بآخر.
- لا أمل فيك.. إن قلبي اعتاد اليأس منك. أنا أبسط مما تتصور، لكنك مصمم على اجتياز أصعب الطرق لتتعلل بأن بيننا مسافات،وفيما يبدو أنني أطلب منك ما هو ليس موجوداً فيك، وتتوقع مني ما لست

أملكه لأعطيه لك،ومحاولتي معك إنما هي مجرد إحباط يخالط الرجاء.

وكم تجسّد رجاؤها فيه وجثا باكياً عند أعتاب عناده، ليست تدري أكان يبكي ندماً أم أملاً، وكم قدّمت قرابين التسامح أمام هيكل كبريائه، غير أنه لم يقبل أو يتواضع رحمةً ووداً. ثم تواردت الذكريات تفعم نفسها غماً ومازالت تلحّ.

خان إلى أن توقفت عن تعقّب أثره أو عدّ مرات خيانته، كذب حتى كذّبت نفسها في صدقه، ترك أرضها ودار حول كواكب أخرى، رحل بوجده وفكره، من قال إن الحضور هو القرب، وإن الغياب هو البعد؟ فالقرب هو كأن يكون شريكك هناك وتشعر بأنه هنا، والبعد كأن يكون هنا ولكنك تشعر بأنه هناك، وباعتبار أن "طارق" هو الشيطان فهل كانت "سندس" الملاك؟ الواقع أن "سندس" لم تقدم حلولاً لحياتها مع "طارق" أكثر من التسامح والتذلل، فلا هي أدركت نقاط الخلل فعالجتها مكتفية ببعض التنظيف السطحي، ولا هي استخدمت عقلها في التفكير والتحليل، بل إن تقديم التنازلات أصبح هو علاج كل المشاكل كدواء الأسبرين ينفع عند البعض لكل الأمراض.

ولتطرد الماضي رجعت إلى أختها "سيرين" الواقفة أمام المرآة تجعد شعرها خصلة خصلة.

- "سيرين"جهزي نفسك للذهاب معي لزيارة أختك.
- لا لن أذهب.
- لا تكوني أختاً سيئة، أليست "سهيلة" توأمتك؟
- بلى، ولكن ألا يكفيها اهتمام الجميع؟ لن أضيف لها شيئاً، ثم هل عليّ أن أقطع أنا الأخرى إصبعي حتى أحظى بمثل هذا الاهتمام؟!
- تتمنين لنفسك ما حلّ"سهيلة"، عليك أن تشفقي عليها عوضاً عن الغيرة.
- لن أذهب، ولن أجلس مع طفليك، لو تركتِهم سأعذبهم، أفهمتِ؟

أزاحت "سندس" أختها بعنف، وتركتها تغمغم بكلام غير مفهوم.بعد رحيل "سندس" وابنيها، استفردت "سيرين" بنفسها وخططها الشيطانية، إن "سندس" لن تعود قبل العاشرة مساءً، وقت طويل كفيل بفعل أمور عدة، بما فيها الخروج من المنزل، لا بل استقبال الأصدقاء بالمنزل، أخرجت الحقيبة التي خبأتها في خزانتها، وأغلقت عليها بالمفتاح، نقود كثيرة، تلك أول مرةتمتلك مبلغاً كبيراً كهذا، إنه أكبر من إضاعة الوقت في عدّه.

اتصلت بـ"ميشو" صديقها الذي كان يمدّها بالمواد المخدرة، ثم انقطعت علاقته بها منذ فترة بسيطة، لكنه وعلى دأبها معه حين تطلب منه الرجوع سيعود،لذا تركته عقاباً له على سوء أدبه. هاتفته

مرة واثنين وعشرة ولم يجِب، حتى بكت تتوسل للهاتف أن يجيب،إلى أن أجاب في المرة السابعة عشرة.

- ماذا تريدين يا "سيرين"، قلت لك انتهت علاقتنا، هاتفي سيفصل.
- أنت تتلذذ بعذابيإذاً، لقد كان من الممكن أن تغلق الهاتف، فأفقد أنا الأمل، لقد كنت تعذبني بهذا الأمل، أليس صحيحاً؟
- لا ليس صحيحاً، ولكن لأرى وجهك رغماً عني مرة بعد مرة حين تعاودين الاتصال، وأنا الذي حلفت ألا أنظر لك أبداً، جعلتِني أحنث باليمين، ولولا أني أحبك ما كنت فعلت.
- قالوا لموزع المخدرات احلف (ضحكت) لماذا لم تحظر الرقم يا شيخ "ميشو"؟
- نسيت.
- لِمَمْ تحاول الاتصال بي؟
- اسألي نفسك نفس السؤال، فجأة تقررين نترك بعضنا، خذ هداياك، تعبت هدايانا بيننا، ثم يومين وترجعين، هذه المرة مرّاثنان وتلاثون يومين ولم تعودي.
- وهل طباعك هينة؟ علاقتنا مهينة جداً يا "ميشو"، أنت قاسٍ ولا تحترمني، ومع هذا لا أتركك يوماًإلا وقد صالحتك في آخره، ولكن هذه المرة مختلفة.

- قلت لك ألف مرة، الفتاة هي من تحرشت بي، وهي التي اختلقت كل القصص، صدقيني لا أعلم.
- ومن يعلم بك سواي؟ لقد حكت تفاصيل قصص من الماضي والحاضر وعلامات،فكيف عرفت؟
- لا أعلم، صحيح إننيمتأكد من الخيانة، ولكن ليست من طرفي؟
- ومن له مصلحة ليجنّد فتاة كتلك للتفرقة بيننا؟
- لا أعلم، لكنها اختفت مع اختفائك.
- اسمع أنا سأعود إليك، وأنت ستغفر لي صفعتيوتهوري عليك.
- لماذا لم تضربيها هي؟ لماذا كل الضرب يكون من نصيبي؟ اعدلي على الأقل يا ظالمة؟!

تضحك "سيرين"، ويضحك هو، ثم يتفقان على مقابلة بعضهما في أحد الأماكن العامة، بعد رفضه أن يلتقي بها في منزلها، وكان "ميشو" على طيشه يحمل عرقاً صعيدياً ورثه من جدوده ناحية حبيبته والغيرة عليها حتى من نفسه، والحفاظ عليها كعهدة في رقبتها، كما كان يؤكد لها مراراً وتكراراً: "أنت تخصينني يا "سيرين" مثل قلبي، وأنا حين أحافظ عليك أحافظ على قلبي".

كانت علاقتهما عنيدة وقاسية وجامحة ومضطربة، وغريبة يتعاملان بتحفز كعدوّين، وكلاهما يتأجج الحب بداخل قلبه تجاه الآخر،

و"ميشو" شاب مستقلّ عن أهله منذ كان يدرس، لم يجد عملاًسوى توزيع المخدرات، مهنة خطرة لكن مربحة، منها اشترى سيارة ومنزلاًوكلباً"جيرمنشيبرد"، أعجبه في "سيرين" ما أعجبها فيه، إنهما يحملان غضباً ناقماً على حياتهما، وغصة سوداء حملت بهما إلى نوع من القسوة حتى في علاقتهما معاً، إنهما قادران على البعد والخصام كما لم يفعل حبيبان من قبل، علاقة لا تخلو من شد وجذب وضرب في أحيان، ومن ثم لقاء عاصف تختلط فيه الدموع وعبارات الاشتياق بالكمات المعاتبة على الخصام، علاقة تشبه مائدة عليها كل ما لذ وما طاب وما لدع اللسان وما حرق الفؤاد، كانت له أهله وكان لها نفسها، يستمتعان معاً بالبرد والمطر، يخرجان دون معاطف، يخلعان حذاءيهما، ويرقصان كراقصي باليه، ثم ينطلقان بهوس في اتجاهات عشوائية.

لا حدّ لأمزجتهما الغريبة والحادة، وكأن الخيار الوحيد لهما في علاج علاقتهما المضطربة هو الذهاب لطبيب نفسي، وحل عقدة خوفهما من الارتباط الرسمي والزواج، ومن ثم الإنجاب، كانا يخافان الزواج كمن يخاف الثعابين والوحوش والحشرات المقززة، أو عذاب الضمير، باختصارإنهما لا يريدان سوى أن يعيشا بنفس هذا الجنون يكفي أن يتشاركا نفس سيجارة الحشيش.

-6-

في المشفى جُبّرت ذراع "سهيلة" اليسرى، وانتظرت الأم حتى يأتي الطبيب المختص للكشف عليها، وبهذا أصبح أمر بقاء "سهيلة" في المشفى مفروغاً منه، وهو ما جعلها تشعر بضيق فوق ضيقالتجبيرة التي قيّدت ذراعها، فحين رجعت لحجرتها وقد رفضت الجلوس على كرسي متحرك مفضلة المشي بطريقة حذرة تشعر بآلام الرضوض وكدمات الوقعة مع كل حركة، لكن هنالك ما يجعلها تستلذ بالألم.

لقد أصبحت "سهيلة" مشهورة في المشفى كلها معروفة باسم الفتاة التي قطعت إصبع قدمها، انتهز "طه" هذه الفرصة، حيث إنه كان يتابع حالتها عن بُعد، وراح يراقبها، إنها أقرب لطفلة عن شابة ناضجة، جسدها النحيل وقامتها المائلة للقصر، شعرها الصبياني الكستنائي الناعم القصير، وعيناها الغائرتان التائهتان الخائفتان، كل صفات هيئتها جعلتها تشبه طفلة مسالمة وديعة تودّ لو تضعها فوق صدرك تمسّد على كتفها، وأنت تدفن أنفك بداخل شعرها حتى تنام تقبّل كفها الرقيق، ثم تأخذها فوق ذراعك إلى الصباح الآتي، هكذا تخيل "طه"، وهو يشيعها بنظراته إلى أن دخلت حجرتها.

ذهب فكرها بعيداًإلى ليلة زفافها، ماذا حدث ليلتها، لاشيء سوى الألم، ثم تحولت من عذراء إلى امرأة، لكنها لا تزال عذراء، وهي

تزوجت الرصيد في البنك، ولا يوجد زواج بين البشر والمادة، لم يحدّثها خلال شهر زواجه منها إلا ببضع عبارات لا تتذكرها، لم تكن "سهيلة" تعرف عنه شيئاً، ولاهو يعرف عنها شيئاً.

أقاما في فندق خمس نجوم كإقامة جبرية.لم ترَى منه الشمس، ولم تمشِ في الطريق، ولم تتنفس سوى العطور والصابون ورائحة الطعام.ولم تقابل مخلوقاً أياً كان خلال هذا الشهر. لم يكن يقبّلها، وكانت تضحك من نفسها على وقت ما كانت تظن أن علاقة الزواج هي تبادل قبلات شبقة حتى النعاس، إنه يلتهمها في قضمة واحدة، وجبة صغيرة، ولكن شهية، وكانت راحتها هي تكمن في الانفلات منه، والنوم فوق كنبة أثيرة كانت في الحجرة.

طلبت من والدها ووالدتها أن يتركاها في حجرتها تستريح، وألا يُدخلا أحداً حتى تأذن هي، وقد فعلا ذلك عن طيب خاطر، بيد واحدة أخرجت الدفتر والقلم، وراحت تكتب رسالة أخرى لاكتئابها.

اكتئابي العزيز

اعترف لك بأنني أحب الألم البدني؛ لأنه يلهيني قليلاً عن الألم النفسي، وأحب رؤية دمائي تنسال مني، وأن أبقّع الصفحات البيضاء بالأحمر من نزفي، وأعترف لك أنني أحبك أيضاً.

أحبك بالدرجة التي تمنّيت لو تجسدت لي فيها بشراً، وصادقتني كما أصادقك، وحكيت لي كما أحكي لك، وأن آخذ رأيك، اكتئابي صديقي، إنني أفقد القدرة على اتخاذ القرار، مذبذبة، ويسقط مني الحكم بدونك، وإن ألمك لهو نوع خاص لا يوجعني، إنه يشبه وجع الولادة، لم ألد من قبل، ولكنني موقنة من أن الأم وهي تضع وليدها تضعه بألم محبب وشعور بالزهو.

وأنا بدونك في هذه الفترات القليلة التي لا تستمر طويلاً، والتي تتركني فيها وحيدة لنفسي أعترف لك بأنني أكون كجمرة متقدة تنظر الوقود لتشتعل، أفكر سريعاً آخذ قرارات فجائية، أتحول إلى كتلة من الرغبة في الحياة وفي العمل والصداقة والحب، ويختفي خجلي المعتاد فأصبح متهورة، ويحل الهوس عن الثبات، الانتشاء حد الضحك دون توقف فتاة يقظة لا تنام، لكنني لا أكون أنا فحقيقتي تكون فقط معك.

وربما لا أكون على حقيقتي معك وحقيقتي هي الأخرى، ولكن قلبي غير الهادئ يرتاح معك، ويظل عقلي مضطرباً يسألني: أحقاً اكتئابي لن يخذلني؟

كم أكره هذه الفتاة مني المجنونة والمبعثرة والفوضوية المشتتة الجريئة، وأحب الهادئة المسالمة الوحيدة المرهقة الخجولة. صدقت "فرجينيا وولف" حين قالت عن نفسها وهو ما أقوله لنفسي دائماً:

"إلىأي مدى يمكن لمشاعرنا أن تأخذ صفاتها وهي تهبط إلى القاع؟ أنا أقصد، ما حقيقة أي شعور "إنه نفس صراعي الداخلي الذي لا ينتهي عن التمييز بين ما هو خيالي وماهو حقيقي،إنه صراعي ومرضي وبلائي، ولكنه ليس مأساتي؛ فنحن من يختلق المآسي، بدليل أنني أحببت اكتئابي، اكتئابي عانقني، ثم انتظر طويلاً قبل أن تتركني وحيدة كطفل في غابة لا يعرف كيف سيعيش، وكيف سيكون.

-7-

يريد مهاتفتها، يخبرها بأن الوصل البعيد يعذبه دون اتصال يستنشق فيه أنفاسها،علاقتهما تغوص في العمق يوماً بعد يوم، والحقيقة هي أنهما قد أعادا اكتشاف بعضيهما من جديد، إنهما عدوان بالنهار بين قضايا ومحاكمات، نفقة وحضانة وطلاق، حرب مشتعلة وسهامها مصوبة،ثم عاشقان بالليل، يتقلبان على بساط من الأمان والسكون، اثنان يحرقهما نسيم الحب، ويسويهما على شعلة شوق تذيبهما، إنه زوجها وهي تحبه، ولكن كبرياءها يكرهه، وهو يحبها وهي زوجته، لكنه لا يعرف أن تلك هي خدعتها للبقاء عليه في غيابها.

أغلقت هاتفها بحركة عصبية، ياللورطة! لا هي قادرة على الاعتراف له بأنها زوجته، ولا هي قادرة على تحمّل أنه بداخل عقله يحب امرأة غيرها، حملت ابنتها الصغيرة بين ذراعها، وأمسكت بيدٍ الابن الأكبر لتعبر باب حافلة مترو الأنفاق، الازدحام على أشده، وقد دخلت بالخطأ العربة المختلطة، اتخذت ركناً جوار الباب الفاصل بين العربات، تتلاقى عيونها بعيون أحد الركاب تسحب سريعاً نظرها، إنها وطوال حياتها معه، وإلى تلك اللحظة لم يمتلك رجل غريب عيونها، ولو لدقيقة واحدة، أخلصت بكل كيانها حتى حينما خانتهخانته معه، تتذكر آخر حوار دار بينهما منذ عشرة شهور.

- تعبت منك يا "طارق".
- نزوة يا "سندس"، ألا تغفرين؟ ثم إنني لم أخنك بالجسد، يشهد الله أني لم ألمس امرأة غيرك.
- خنتني بإحساسك وهذا يكفي، بنظرك، بصوتك، بمشاعرك، بخيالك.
- أنا...
- أنت لا تحبني، ومن الظاهر أنني أيضاًكنت نزوة في حياتك.. لننتهِ يا "طارق".

كان الوقت كافياً للتمسك بها، وجعلها لا ترحل، أخرجت الحقائب أمامه، وضعت ملابسها وملابس الطفلين أمامه، بدّلت ملابسها وملابسهما أمامه، تلكأت وتعللت وتباطأت لعله يراجع نفسه، تباً لقلبها الذي أوحى لها بذلك الهراء، وبأنه سيطلب الصفح منها، فتحت الباب، وأغلقته خلفها، أمامه، كل ذلك حدث أمامه،ضمّة منه كانت لتثنيها وتنسيها ما حصل منه، لحظة احتياج للسكون وقت اجتياح العاصفة،وبرغم امتلاكه لذراعي محارب قادرتين على احتضانها، ولسان فصيح ليطلب منها البقاء وعينين قد تعبّران عن الندم، لم يفعل، وأغمد في قلبها من العشم سكيناً، وقطر من عينيها الدمع دون أن يلين أو يرحم.

إن "طارق" واحداً من هؤلاء الذين لا يحسبون للمشاعر حساباً، كل أثر من الممكن أن يحط على قلبه إنما هو يشبه طبقة غبار خفيفة تأتي الرياح بها، ولا تلبث إلا أن تأخذها هبة رياح أخرى، وربما هو شخص يحمل رقة وضعفاً وحناناً، ولكنه يتظاهر بعكس ذلك كبراً وخجلاً، لا أحد يعلم، وكذلك "سندس" لم تكن تعلم حقيقة زوجها إلا من ظاهر تعامله معها.

لم تنتبه إلى أن محطة المترو فاتتها، فخرجت متخذة سيارة أجرة، ورجعت إلى المشفى.

في ذلك الوقت كانت "نادية" تقوم بالفحوص والأشعة اللازمة لها على فقرات ظهرها، وتم خياطة جرح الركبة، الأشعة لم توحِ بأمر طيّب؛إذ إنها أظهرت عن ورم في الظهر فوق الفقرات السفلى يضغط على العصب، مما فسّر سبب الشلل المفاجئ الذي يحدث لها من حين لآخر، إن ما قاسته على طول حياتها من جهد وإرهاق وعذاب وألم بدا ضئيلاً كوخز رأس دبوس بالنسبة لما تسمعه الآن.

إنه ليس الوقت المناسب للموت، ليس وقته على الإطلاق، قالتها بداخل نفسها وفكرت، هل عاشت كل تلك السنوات الطويلة الماضية بعيدة عن بناتها ليأتي القدر، ويختطفها في ذلك التوقيت الذي قررت فيه الأوبة والإصلاح، إن الشوك يزهر أحياناً، فما المانع أن تزهر

حياتها وحياتهن من جديد؟ليتها تحذف العمر الماضي، ليتوقف العمر عند وقت وداعها لهن فتموت بين أيديهن قبل أن تخطو عتبة البيت،إن باقي العمر كان من دونهن زائداً عن اللزوم.

حجزت "نادية"حجرة لنفسها في نفس القسم المحجوزة فيه سهيلة، دفعت تأميناً مناسباً، لتكون حجرتها ملاصقة لحجرة ابنتها، وفي حجرتها استقبلت "فؤاد" للتفاهم معه عن البنات، وأن وجودها أصبح ضرورة مؤكدة لا فصال فيها.

- بناتي يحتجن إليّ يا "فؤاد".
- هل تعتقدين أنك قادرة على إصلاح حياتهن؟ أكاد أجزم بأنك نسيت كيف تكون الأمومة، لقد تركتِهنّ أطفالاً منذ عشرين عاماً.
- الأمومة غريزة لا تنفصل إلا بانفصالي عن إنسانيتي، مازلت توهم نفسك كما أوهمتهن أنني أنا من تركتهن، أفِقْ من حالة التخدير تلك، كم عدتُ وكم كنت تصدني، درجة التهديد بأنني ولو حاولت الاقتراب فسوف تهرب بهن، فلا أعرف لهن طريقاً، وأحرم حتى من اللقاء المسروق بهن عن بُعد.

يفيض بهما الشجن فيصمتان، يخرج "فؤاد" عن الصمت قائلاً بصوت واثق:

- نعم أعترف بأنني أنا الذي أبعدتك عنوة عن البنات، وها أنا أتجرّع النتيجة.
- لست وحدك.
- إذا كنت تريدين اعتذاراً أمامهن فعلت.
- لا لا تفعل؛ لأنه لن يفيد، لكن المفيد حقاً هو عدم تدخلك فيما سيأتي.

عند وصول "سندس"للمشفى فتحت هاتفها المغلق، وهاتفت والدها، وبوصفهلعنوان القسم ورقم الحجرة ذهبت، كانت هذه المرة الأولى التي تقابل فيها والدتها منذ خمس سنوات، "سندس" على عكس أختيها، فقد كانت غير مبالية،ولم تتأثر كثيراً برحيل الأم، وقتها وضع والدها فوق عاتقها عبئاً كبيراً وذخيرةمن المسئوليات، فشعرت بأنها هي الأم، ونسيت الاحتياج إلى الأمومة في خضم العطاء، لكن حياتها اضطربت فيما بعد في مرحلة المراهقة، فلقد عانت من التنمر؛ بسبب مهنة والدتها حين انتشر معلومات عنها، وسط زميلاتها من قبل جارة لها أن والدتها تعمل راقصة، مما جعلها تنتقل إلى مدرسة أخرى أبعد تكبدها شقاء المسافة.

منذ خمس سبع سنوات زارتها أمها في منزلها بعد زواجها،لم تكن "سندس"تعرف كيف تعامل "نادية"، هل كضيفة أم كأم، صحيح أنها

كثيرا اعترضت أسلوب والدها في تصميمه على إظهارها أنها أمّ سيئة، بل وعارضته للحد الذي وصل في مرات للنقاش الحاد بصوت عال أو الخصام لأيام، لكن تظل هنالك غرابة ووحشة سنوات الغياب بينهما، فماذا تقول؟ وما المفترض قوله للأمهات كعلامة ترحيب، قدّمت نوعين من العصير وقهوة وشاي وحلوى وفاكهة وطعام ثم أعادت الضيافة مرة أخرى خلال مدة زيارة قصير، ظنت بهذا أنها تبدي تقبلها لزيارة والدتها، لكن ما فعلت زاد الأمر سوءاً، فقد رأت الأم في ذلك توجب وتكلف زائد، علاقة روتينية تشبه علاقة الروبوتات ببعضها البعض، مما أصابها بخيبة أمل ويأس من أنها قد تستطيع خلق علاقة سوية بينها وبين بناتها.

إنه نفس الإحساس يتجدد بينهما الآن، وهما في مواجهة بعضهما البعض، كلاهما ينتظر مبادرة الآخر، مدّت "سهيلة" يدها بالسلام ترتعش أصابعها، يدقّ قلبها سريعاً، تشعر ببرودة قدميها وهي مختبئة بداخل الحذاء، أما "نادية" فقد شعرت بسخونة الدماء في نهداها تماماً، كما كانت تشعر وقت ما كانت "سندس" رضيعة وتحتاج لها، تبادلا ابتسامة مرتعشة، ثم ماذا بعدُ؟

- سلّمي يا "فريدة" على جدتك والدة ماما.

رفعت "نادية""فريدة" تحملها إليها، ضامةً، ثم قبّلتها عدة قبلات أنزلت الفتاة، ثم التقطت "مهاب" وحملته هو أيضاً.

- إنهما يشبهانك يا "سندس" خاصة "فريدة".
- "فريدة" تشبهك أنت.
- نعم هذا لأنك أكثر الشبه بي.

فرك الوالد يديه، وهو يقول:

- أترككما الآن، سأكون بالخارج إذا ما احتجتما لشيء ما.

جلست سندس إلى جوار "نادية" على نفس الأريكة،ومسافات طويلة بينهما فاصلة، كانت "سندس" مرتبكة فاقدة القدرة على الكلام والاستماع والتنفس، تعرّق جبينها، واضطربت دقات قلبها، واختنقت الدموع في عينيها، وفي هذا الهدوء الكامل كانت ألف معركة تخوضها "نادية" بداخل نفسها، عما قريب ستموت، عما قريب ستُنسى، عما قريب لن تكون أماً.. بحروف خرجت بمشقة وتكونت بأعجوبة سألت:

- كيف أحوال أسرتك يا "سندس"؟
- جيدة.
- حياتك مع زوجك؟
- على ما يرام.
- لما لم يأتِ معك؟

- لأنه بالمنزل.
- كنتِ تركتِ معه الأطفال.
- سيكونان بخير معي.
- حسناً، أنتِ إذاً لا تريدين إخباري بمشاكلكما معاً؟
- وكيف عرفت؟
- أنا لست معكم يا "سندس"، صحيح، ولكني لست بعيدة.
- مشاكل عادية يا أمي.

يرنّ هاتف "سندس"، فتضطرب وتخرج سريعاً من دون حتى استئذان والدتها، مما يثير فضول الأم، فلو افترضنا أنه اتصال مهم حتى ما المانع أن تجيب أمامها.

كان "طارق" يتصل بواسطة الماسنجر، أغلقت "سندس" الشات، وكتبت له أن عليهما إنهاء العلاقة، وعليه هو الرجوع لزوجته وأبنائه، ثم حظرته.

جنّ جنون"طارق"، إنه يريد لو توطدت العلاقة الافتراضية إلى رسمية، لا يعلم حقيقة المؤامرة، لقد اعتاد "قمر"، منذ أن حلّت إلىحياته شعر بقيمة أمور كان قد نسيها، كأن يهتم بصحته وغذائه؛ لأن هنالك شخصاً على وجه الأرض سيسأله عما فعل، وسوف يعنفه بالخصام إذا عرف أنه قصّر في حق نفسه، شخص سيرسل له رسالة

الساعة الثانية بعد منتصف الليل يذكّره بأن يدثّر نفسه جيداً، إنها قطعة السكر التي اعتادها في حياته، وكيف تتحمل هي غيابه؟ ألم تعترف له ذات محادثة بأنها لا تتخيل نفسها موجودة إلا إذا كان هو موجوداً.

إنه يشعر بالاختناق الآن،يبكي كطفل تاه عن أمه، وظنّ أنها هي من تاهت عنه، يريد لو يكتب لها: "لقد كتبت شهادة ميلادي منذ يوم تلاقينا، وكتبت شهادة الوفاة يوم تركتِني". أراد أن يخرج من منزله والمدينة والكوكب كله، اتصل بصديقه المقرب وحدد موعداً معه؛ لمقابلته في مكان عام، لم يستطع "طارق" كيّ ملابسه أو حتى تصفيف شعره، وخرج بما وجده أمامه، بظهر منحنٍ كعجوز ترمّل بعد خمسين عاماًمن الزواج.

حين قابل الصديق صديقه ارتمى فوق كتفه وعانقه.

- ما بك يا "طارق"؟ الهم أثقل كاهلك، حالك لا تعجبني.
- تركَتْني.. حظرَتْني.. طلبت مني العودة لزوجتي.
- إنه مجرد عالم افتراضي مثل السراب، ما أن تقترب حقيقة لا تجد شيئاً، لا يجب أن تخدع لهذا الحد، افترض يا أخي أنه رجل شاذ.

يضحك "طارق" حتى تدمع عيونه.

- ليس بعيداً، فكل شيء جائز.
- لكنها حقيقة.
- لماذا ترفض مهاتفتك.
- لأنها محافِظة.
- هل أنت ساذج؟ محافِظة على ماذا، كيف تسلّم نفسك لفتاة دون ضمير تلاعبت بقلبك؟ صحيح أنك تحبها، ولكن لا يسمح لك أن تظلم في المقابل زوجتك الصالحة الوفية، دعِ الأخرى وشأنها،إن غطاء الحب إن كشف لاحتقرتها واحتقرت نفسك، ولخجلت من سلوكك المراهق.
- اسمع،أحبها وهذا كل شيء، ولا يعنيني أي شيء، لقد سلبتني، هل تدرك معنى أن يخطفك إنسان من نفسك، وهي امرأة وليست رجلاً، وهي تحبني، ولكنها تشعر بالذنب، تريد مني الرجوع إلى المرأة التي لم تشعر بي أبداً، أنا لم أحبّ في حياتي سوى "قمر" يا علي، ولن أحب سواها.
- أبصم لك على أنها نزوة ككل نزواتك.
- لا ليست كذلك؛ لأنني الآن أستطيع التفرقة بين الحب والرغبة، وبين السعادة الحقيقية والتعود، معنى أن تحبك امرأة، فتهبك وقتها، وتهبها وقتك، تكتب لها لساعات طوال، وأنت مستلقٍ فوق فراشك فور

استيقاظك، وأنت تحلق ذقنك، وترتدي ثيابك، وأنت تعد طعامك وتتناوله، وأنت خارج من المنزل للعمل، وفي الشارع، وفي عملك، ومع أصدقائك وأهلك، حتى يحين موعد نومك، وأنت لاتزال تكتب لها،إلى أن تختلط الحروف ببعضها وتروح في النوم، ثم تقول لي نزوة!أي نزوة تلك التي تستحمل كل هذا الصبر؟إن علاقتي بـ"قمر" ليس فيها مكان أووقت للنزوة،إنها ممتلئة ومزدحمة ومتخمة بالمشاعر، كما أنه لا يحدوني معها الندم الذي يرافقني مع كل نزواتي، بل على العكس إنني سعيد بهذه العلاقة،وفخور، وأيامي فيها لم تكن سيئة على الإطلاق.

ثم ترك "طارق" صديقه، ورحل يمشي بخطى سريعة. لا يعرف لأي مكان يذهب، نظر إلى السماء وتوسل لله أن يردّها هو إليه إن كانت هي ترفض الرجوع، لا ليس كما قال صديقه من أن حبه لها وهم، ليس وهماً، لقد أحب روحها، وذلك أسمى معاني الحب.

من ناحيتها، كان على "سندس" الاختباء في أي ركن بعيد، فلا تفضحها دموعها، إنها تريد أن تصرخ الآن، ولكن ما أن التفتت حتى وجدت أمها أمامها.

- كنت أريد الاطمئنان عليك، هل أنت بخير يا ابنتي؟
- لا لست بخير يا أمي.

ثم رمت نفسها في حضنها تبكي.

- لنترك الطفلين مع جدّهما، ونذهب لنتناول شيء ما في الكافتيريا، هيا امسحي دموعك،وتعاملي مع الحياة كصقر جاسر، ولو كنتِ عصفورة رقيقة.

هزّت "سندس" رأسها موافقة، وفي الكافتيريا جلست المرأتان قبالة بعضهما، حكت "سندس" لأمها ما ورّطت نفسها وزوجها فيه في اندهاش من الأم، كيف لامرأة أن تدمّر حياتها كما فعلت ابنتها هكذا.

- دعيني أسألك سؤالاً.. كيف تعرفتِ على زوجك يا "سندس"؟
- لم أتعرف عليه، ولم يتعرف علي، لقد رشحني له أحد معارف أبي، قضينا ستة أشهر الخطوبة في تأسيس المنزل، ثم تزوجنا.
- ألم تتحادثا معاً قبل الزواج؟
- إنني فتاة خجولة.
- لا أقصد كلاماً سيئاً،إنما أقصد التعارف، تعرفين من هو، وهو يعرف من أنتِ.
- لا، لقد جاء الحب بعد الزواج.
- لا بل أتى بعد الانفصال، حينما بدأتما تتحدثان وتتعرفان من جديد، ويعرف كل منكما الآخر، لقد أسأت تقدير نفسك بهذه الفعلة يا "سندس"، إن عدم ثقتك في غريزتك الأنثوية جعلك تنتحلين شخصية

أخرى أمام زوجك، مظهرةً جانبك الآخر كشخصية جريئة وواثقة وقادرة على المواجهة، الجانب المختبئ خلف الخجل والخوف.

- كل ما أعرفه أنني أحبه، لكن عندي كرامة تمنعني من الرجوع إليه.
- كرامتك أم قلبك يا "سندس"؟
- كرامتي، وليحترق قلبي وأحترق أنا معه.
- أنت بذلك تخدعين نفسك؛ لأنك تعلمين أن الحقيقة غير ما تقولين.
- ليس لديّ أي فكرة عما أستطيع فعله حيال ما أنا فيه، إنني غارقة في غبائي.

ثم رجعت"سندس" تنتحب مغطية وجهها بكفيها. وكان "طه" يراقب الموقف عن بُعد، فحزر أن هذه الفتاة هي ابنة المرأة، وتعاني خطباً ما أيضاً، فأخذه فضول غريب تجاه هذه الأسرة.ولم تجد الأم ما تواسي به ابنتها سوى الصمت، وضمّ كفيها بكفيها.

- لا تقلقي سأفعل ما بوسعي لقتل ذلك الحزن البشع، وإيقاف شلال هذه الدموع يا صغيرتي.

-8-

مستعداً للقاء "سيرين" بعد خصام طويل كان "ميشو" يعد نفسه متأنقاً بكل ما لا تحب أن تراه فيه، السترة التي تتشاءم منها، النظارة التي يبدو فيها بشعاً، العطر الذي تتقزز منه، وأخيراً كلبه الذي تغار منه، وبهذا يكون قد ضمن حنقها منه وإثارة غيظها؛ انتقاماً منها على خصامها الطويل،فلا تفكر في الانفصال مرة أخرى.

في المقابل كانت "سيرين" تفترش الأرض بثيابها وأحذيتها وأدوات زينتها تقرر أيها الأجمل لأجله تصالحه بطلّة جذابة يحبها وتروق له، وودّت لو استطاعت السفر لأرقى بيوت الأزياء، واستحضار أفخم وأجمل ثوب، ثم تذهب لأشهر صالون تجميل، فتتجمل في أبهى شكل لا يراها فيه سوى حبيبها تدندن أغنية تحفظها.

كلام العين يا ريتك تجيني

وليه البعد ما بينك وبيني

إمتى ترد يا شاغلي بالي

ليا شهور والتعب حالي

بينما كان "ميشو" يرتدي حذاءه أعلمه الخادم أن امرأة تريد مقابلته، سأله إن كان يُدخلها أم لا، فطلب منه أن يطلب منها البقاء خلف

الباب حتى يستعلم بنفسه عن هويتها، إنه لا يستبعد أن يكون مراقباً من الشرطة، وأن تكون مبعوثة من طرفه، وضع "ميشو" عينه فوق العين السحرية، ثم ما لبس أن فتح الباب، إنها أمه وأخته.

- أمي،"ليلى"تفضلا يا غاليتان.

راحت الأم تقبّل ولدها في كل بقعة من وجهه، وحين انخفضت تمسك يده أمسك بها لاثماً كفيها، شمّ من بين كفيها رائحة طعامها وخبزها، وشعر بلمساتها حين كانت توقظه بهدوء للمدرسة، تدور دعواتها له في أذنه، إنها الراحة التي لم يشعر بها لسنوات مضت، إن الرجل ولو وصل للأربعين أو الخمسين،فهو لا يزال طفلاً مادامت أمه على قيد الحياة، وهو الآن يشعر "ميشو"بأنه رجع طفلاً صغيراً يحوم حول أمه.

تأمل وجهها،إنها هي ولم يتغير فيها شيء، نفس نظرة الفخر التي كانت تنظر له بها على الدوام ولو كان في أسوأ حالاته، سنوات مضت منذ فراقهما أخذها متأبطاً ذراعها، وأجلسها جواره على مقعد عريض،وأخيراً استطاعت أن تتمتم:

- اشتقت لك يا ولدي، بُعدك جمرة في قلبي لم تخمد إلا الآن، سامحني وصلني عنوانك، ولكن حكم القوي لكن القوي يوجد الأقوى منه،والدك توفي منذ شهر يا "محمد".

تطلب الأم منه السماح، من يسامح من؟إنه يحتقر نفسه الضعيفة التي منعته السؤال عن أمه طوال السنوات الماضية،لم يكن ليسامح نفسه العمر لو كانت هي التي ماتتوهو بعيد عنها، ألم يكن من الممكن الذهاب إلى منزل والده، وطلب رؤية أمه، وهو الذي وقف من قبل في وجههم جميعاً، وكانت لديه الشجاعة أن ينعت والده بالظالم؛ لأنه يفرّق بينه وبين إخوته الذكور، هذا لأنه ابن المرأة التي زوّجها له والده غصباً وكان يكرهها، ألم تكن عنده القوة الكافية للاستقلال؟ لقد كان يستطيع الصياح في وجه أبيه ويطلب رؤية أمه، لكنه الخوف، ليس على نفسه، ولكن عليها، إن رفض والده تأذت هي وقُهِرت.

في خضم لقائه مع أمه الذي ملكه نسي موعده مع "سيرين"، وفي سكرة اللقاء لم ينتبه، وعلى هذا لم يهاتفها للاعتذار، انتظرته، وكان قد اختار موعد منتصف النهار والشمس عمودية ظلها يصنع زاوية قائمة، نصف ساعة، ساعة ثم هاتفته، كان حديث الأم قد أسره، فأغلق هاتفه دون أن يتذكر موعده الذي أضناه بُعده،تحركت الهواجس في عقلها أن خطباً قد أصابه، فاستقلّت سيارة أجرة وتوجهت إلى منزله، ولأنه يعلم الخطر الذي يحيط به شدد عليها ألا تزوره مطلقاً في بيته، لكنه قد يتأخر، ولكن لا يفوّت موعده معها، ولا يغلق هاتفه، وحسمت أمرها على أن هنالك أمراً خطيراً.

برغم الخوف إلا أن المجازفة كانت خياراً لا ثاني له عندها، إما أن تطمئن على حالة "ميشو"أو تحترق في التوّ والحال، الشارع هادئ لكن هذا ليس دليلاً، ستظهر الحقيقة بعد دقائق، حين ترن الجرس، فإما أن يخرج هو أو الخادم،أو أنه يكون بالفعل قد حدث له مكروه. بأناة قرّبت يدها من جرس الباب، وبكل أصابعها المتوترة ضغطت على الجرس، دقيقة مرت كساعة حتى سمعت صوت تحرك قفل الباب، فكرت لو تختبئ خلف درابزين السلم مراقبة من سيفتح الباب، لكن لم يكن هنالك الوقت، سريعاً انفتح الباب قليلاًقليلاً حتى ظهرت فتاة شابة، إنهإذاً يخونها، قالتها سريعاً لنفسها، ثم أزاحت الفتاة تبحث عن "ميشو"، ودون مقدمات لطمته فوق خده، وبصقت عليه، ورحلت، لا يفهم سبباً لتصرفها أمام أمه وأخته، فلم يكن منه سوى أن ظلّ واقفاً لمدة دقائق، ثم التفت إلى والدته: "لا تستعظمي الأمر يا أمي، يحدث للشباب عادة هذه المواقف، لابد لنا من السفر الآن، وجب عليّ لقاء باقي إخوتي الصغار".

ألقت "سيرين" نفسها داخل أول سيارة أجرةقابلتها، وتحركت إلى المشفى، تشعر أنها الآن غريبة بعد أن تمكّن منها شعور بأن "ميشو" لم يكن يحبها حباً حقيقياً صادقاً، وقد ظهر الحق من البهتان في علاقتهما، إنه ليس لديها ما يعزيها فيه، حتى ذكرياتهما أصبحت سلاحاً

ضدها، وهي التي كانت أغلى ما تمتلك، وكل ما يرفه عنها ويعزيها وسط حياتها في منزل يتشاركه أقارب كأغراب، إنها لم تجلس مع أحد، ولم تحدث أحداً قدر ما كان معه.

ربما جاءها الحب متنكراً في صورة طفل بريء عوّضها حرمانها، وهو في الأصل شرير وظالم وينوي صرعها، ولكن لمَ تظلم الحب؟إن المشاعر الفطرية لا تقر بالمراءاة ولا بالخداع، فكيف يلتبس الجمال مع القبح؟ ثم خنقتها العبرات، فتعجب السائق، وسألها أن تهوّن على نفسها،طالباً من الله أن يريح بالها، لكنها لم تجب، وظلت على حالها، والأفكار مسحوقة تطحنها بداخل عقلها، تستعر النيران في قلبها حتى وصلت المشفى.

هاتفت والدها، وعرفت مكان القسم، ورقم الحجرة، ولم يكن والدها موجوداً في المشفى في هذا الوقت الراهن، فاتصل بالأم، وطلب منها استقبال "سيرين"، وكانت الأم لا تزال في فستانها الذهبي اللامع المطرز بالترتر تروح وتجيء في المشفى به من حجرة الكشف إلى الأشعة إلى الكافتيريا إلى حجرة "سهيلة"،في نظرات تعجب من كل من رآها، وقالت لنفسها: "لا بأس سيظنون أننيمحولة من قسم الأمراض النفسية، ولست راقصة، وإلا لرجموني بالحجارة"!

عند باب القسم وقفت "نادية" تنتظر ابنتها التي ما أن رأتها حتى ارتمت في حضنها مغشياً عليها، هتفت تطلب النجدة، فلحقتها ممرضة، وكان "طه" يمر ببعض طلبات الأطباء، فهرع هو الآخر على الصوت:"طه" ساعدني فابنتي فقدت الوعي. طلبت المساعدة من "طه" الذي هرول إلى حجرة المعدات الطبية، وأخذ سريراً نقالاً وضع عليه "سيرين".في هذه الأثناء وصل أحد الأطباء الذي طلب تحضير حجرة لاستقبال "سيرين"، فيتم الكشف عليها، والوقوف على حالتها.

- ضغط منخفض وهبوط في الدورة الدموية، ستظل معنا حتى تستقر حالتها، سيعلق لها محاليل الآن، وسوف تقيم معها ممرضة لمتابعة حالتها.
- شكراً يا دكتور.

إن رأسها يدور الآن، هي واثنتان من بناتها محجوزات في المشفى، حجرتان واحدةلـ"سندس" وأخرى لـ"فؤاد" ويلم الشمل كله في مشفى واحد! تهرول نحوها امرأتان ترتديان البالطو الأبيض:

- إننا نبحث عنك.
- من أنتما؟
- ألست السيدة"نادية عبد الصبور"؟
- نعم أنا "بنت عبد الصبور".

- يا مدام أنت محجوزة هنا في المشفى، عليك المكوث في حجرتك والاستراحة، وليس عليك التحرك إلا بإذن الطبيب.
- هذا لو كنت شخصية عادية مجرد مريضة، ولكنني أمّ، اثنتان من بناتها محجوزتان أيضاً معها، كيف تطلبان مني أن أستريح؟ كفاني راحة.
- لا مجال للجدل، هيا معنا يا سيدتي.
- معكما أين؟ سأذهب للاطمئنان على "سهيلة" و"سيرين" و"سندس".
- هنالك طاقم تمريض على أعلى مستوى سيهتم بهن، أرجوك لا تجعلينا نقدم على أخذك بالقوة.

ثم راحت الممرضتان تجذبان "نادية"وهي تقاوم للإفلات منهما دون جدوى، حتى وصلتابها لحجرتها، وضعتاها على الفراش، ورفعتا فوقها غطاءً خفيفاً، وأسندتا رأسها بوسادة بعدما حذرتها واحدة منهمابأنها إذا خرجت ستضطر للبقاء معها لمراقبتها، طلبت فنجان قهوة، لكنهما رفضتا، ولم تجد "نادية" بداً سوى الاستسلام، وإقناعهمابأنها رخضت للتعليمات، وسوف تستريح بالفعل، فلذا كل ما تريده هو عدم إزعاجها، ثم تناولت أقراص العلاج،واستلقت مسترخيةفي الفراش.

بعد مضيها تناولت هاتفها، تنظر إليه محتارة بمن تهاتف أولاً، أخيراً قررت مهاتفة "سمير" سكرتيرها، ودون مقدمات تحدثت إليه.

- أهلاً يا "سمير"، اسمعني، تأتي اليوم وقبل أن تأتي تذهب للمنزل تطلب من "أمينة" جلب غيارات لي، ملابس كاجوال، وكوتش وحذاء فلات وشبشب حمام وفوط وغيارات داخلية، أما أنت فعليك أن تحضر لي التموين، أفهمت؟ سلام.

ثم أغلقت الهاتف في وجهه، واتصلت بـ"سندس".

- "سندس" أين أنت؟
- أنا خارج المستشفى بداخل مطعم أطعم الطفلين.
- من هذه اللحظة تعطيني خبراً عن مكانك قبل تحركك لأي مكان، ولو كان الحمام؛ لأن الوضع تأزم فأختك "سيرين" محجوزة هنا، ولكن بالطابق الأعلى منا حجرة رقم 93 تأتي وتمكثين معها إلى جانب والدك، وأنا سأكون إلى جوار "سهيلة".
- ما الذي حدث لـ"سيرين"؟ ما بها؟
- الضغط منخفض، ولكن هنالك أمر آخر وراء انخفاض الضغط، تهدأ وأتحدث معها، هل أنت بخير الآن؟
- لا لست بخير، لقد اشتقت له، كنا نتحدث في مثل هذا الوقت، وكنت أعرف ماذا يفعل،إن ما يحدث له دون معرفتي يشغلني كثيراًو...

تغلق "نادية" في وجهها الهاتف، "لا وقت للبكاء،إنه وقت إيجاد الحلول"، تقولها لنفسها وتنهض، إن عليها الآن الذهاب للاطمئنان على "سهيلة".

-9-

في غرفتها كانت "سهيلة" مستلقية يواجه وجهها السقف، سعيدة من دون سعادة، وصحيحة من دون صحة، مؤتلفة بطيف شكّلته لاكتئابها الذي كان يعرف مسالك نفسها، فيسلكها إلى وجدانها، كان للرسائل عامل مؤثر في حال سهيلة، جعلها تخرج من البؤس والحزن إلى البهجة والنشاط.

أما الغريب، فقد كان هو عدم اهتمامها بموضوع إصبع قدمها المقطوع، والذي بترته بيدها، كان ضياع كل شيء هيناً عندها، فالحياة في نظرها صغيرة حقيرة، ولكنها مؤثرة تحمل من الشظايا ما هو قادر على الفتك بها.

لقد تركت عملها منذ شهرين للتفرغ لإنهاء رسالة الماجستير، أعدّت نفسها، وهيّأت الأسباب لذلك، ولكنها لم تبذل الجهد المطلوب، فلم تنجز شيئاً مما خططت له دون تلمّس أسباب واضحة أو حقيقية غير الكسل، فازدرت نفسها وعنّفتها، ثم نظرت لها نظرة حيوان ناطق بلا عقل، متدلية في تقديرها إلى مراتب دونية، مما زاد من ركونها إلى الوحدة أكثر وأكثر، وغايتها في ذلك إذلال نفسها العاطلة عن العمل.. وتلك كانت واحدة من الشظايا.

شعرت بحاجة للكتابة له، إنه شعور يشبه أن تشعر بأنك جائع فتأكل وعطش فتشرب، طلب ملح في استجداء الراحة النفسية والاسترخاء، أن تريد اللقاء في هذا الوقت لا يهم ليل أو نهار، وذراعك مجبر أو صحيح في الصقيع أو الحر فلا الجو أو طبيعة حالك قد تثني رغبتك في ملاقاة حبيبك، وبهذا اعتمدت الاكتئاب حبيباً من بعد الصداقة. سحبت الدفتر من أسفل وسادتها وراحت تكتب.

اكتئابي العزيز..

أراك في كل ما يحيط بي وفي عيون الناس التي تنظر إليّ، وأراك مطبوعاً فوق أوراق الأشجار القائمة فوق الأرصفة وزجاج السيارات في الشارع، وفي صفحة كل بقعة ماء، وحين أنظر في المرآة وأراك معي لا تفارقني تؤنس وحشتي تقلب أعاصير مزاجي إلى هدوء، وأراك تصاحبني أينما حللت وأينما سرت، مبتسماً في وجهي محدقاً في عينيّ، ولو أنني لم أنل منك سوى طيف، وأقل من طيف،إلا أنك جعلت من حياتي شيئاً يستحق الاستمرار.

إنني دائماً ما أشعر بحمل ثقيل ينوء بي إلى الأسفل، فيجعل الموت راحة بالنسبة لي، وقد تصادف مع هذا الحمل ألا أحد يشاركني فيه، وأشعر أيضاً كأنني بطلة من بطلات القصص القديمة الكلاسيكية، كـ"سنووايت" مثلاًأو"سندريلا"، الفتاة التي تنتظر فارساً شجاعاً

مقداماً يطوّقها بذراعه ويقومها لتعتدل فوق جواده، ثم يأخذها بعيداًبعيداً، حيث لا يكون سواهما، ولا يسمعان سوى صوتيهما، وحيث الجبال الشاهقات، وقد اصطبغت بلون بياض الثلج يعكس الغروب عليها لوناً أرجوانياً، وقبل الغروب تماماً وقرص الشمس خلف التلال يتوسل البقاء ليكون شاهداً على النهاية السعيدة لقصتهما، يقبّلها فارسها قبلة يودِع فيها لها حبه، وقتها تستطيع القول إن تلك هي سعادتها وهذا هو ربيع حياتها.

اكتئابي، ألا كنت أنت فارس أحلامي وجعلنا لهذه الرفقة معنى؟

سهيلة

بخفة خرجت "نادية" من حجرتها بعدما تأكدت أن الممر يخلو من الممرضات، وفي سرعة البرق انزوت، وفتحت باب حجرة "سهيلة"، سريعاً وضعت "سهيلة" الدفتر أسفل وسادتها وقت ما تفاجأت بدخول والدتها التي لاحظت ارتباك ابنتها وهي تخبئ شيئا أسفل الوسادة.

- ماذا خبأت أسفل وسادتك؟
- لا شأن لك.

- لا شأن لي؟ حسناً، إذا كان لا شأن لي فلما خبأتِه؟ لماذا لم تظلي على وضعك الهادئ؟
- أنا حرة.
- حرة، نعم، ولكنني أعرف أن الحرية هي الاستقلال الذي تحميه القوة، وأنت على حد علمي غير قادرة حتى على مواجهتي واختبأتِ.
- وأنت تتعاملين كشخص بلا قدمين ويعلّم الناس الجري.
- "سهيلة"،"مبروم على مبروم لا يدور"، أنا تعاملت مع "غوازي" و"عوالم" ألن أقدر على التعامل معك؟! سأترك لك خصوصيتك فيما أردت الاحتفاظ به لنفسك، ولكن إذا ما اتبعت نفس الأسلوب مرة أخرى معي سأفعل أكثر ما تكرهينه على الإطلاق، سوف أطلب ممرضة تقيم معك كمريضة نفسية تحتاج الملاحظة،ولضيعت عليك ساعات وحدتك الغالية.

نظرت إليها "سهيلة" شزراً ولم تنطق، تابعت الأم حديثها، وهي تتقدّم لتجلس فوق الأريكة المقابلة لـ"سهيلة":

- توأمك "سيرين" فقدت الوعي وهي محجوزة معك في نفس المشفى.
- وما دخلي؟ لماذا تخبرينني؟ على أي حال فلن أقدر على زيارتها.
- ما هذه القسوة التي تمتلكك يا "سهيلة"؟! أقول لك أختك توأمك ولا شعرة فيك تحركت، يالك من سوداوية.

- أتريدينني أن أجامل مثلاً وأنافق وأنوح بكاء؟ الأمر حقاً لا يعنيني في شيء،ومعك حق إنني ظلامية سوداوية، هل لديك أي ملاحظات أخرى؟
- إنني أتخيل الآن حياتكن أسفل نفس السقف مع والد دائم التقصير، بالتأكيد كانت حياة باردة محرومة من الحب والتفاهم والدفء.
- أصف لك أنا كيف كانت حياتنا باختصار؟ كانت دون أم، دون مسمار الحياة الأسرية وميزانها، كنا في احتياج دائم للعاطفة، حتى أخذنا مع الوقت جرعة مناعة، فنسينا معنى العاطفة من الأساس، ووالدي لم يقصر في شيء، ولا أسمح لك باتهامه بالتقصير.
- إنه من منعني عنكن و...
- كفاك من تلك النغمة، كان من الممكن أن تحاربي كما حاربت من أجل مستقبلك المهني كما تصفينه، وكما حاربت من أجل ما تريدين أن تكوني عليه، أنت أردت الهدوء، مكتفية بأن تلوحي لنا من الشارع المقابل وقت ذهابنا أو عودتنا من المدارس.عرفت وحدك طعم السعادة بالنجاح والشهرة والتصفيق والتهليل، وعرفنا نحن طعم الحزن والحرمان والوحدة، وحدهن ثلاثة صغيرات يبقين في المنزل أغلب الوقت، كل واحدة تسرّح لنفسها، وتعتني بنفسها، وتذاكر لنفسها، ولقد ذقن طعم الخوف وقت انقطاع الكهرباء، في الظلام

نحسد الكتاكيت التي تكنّ أسفل جناح أمهاتها، إنه لأمر مرعب هو اليتم بموت الأم، ولكن الأكثر رعباً هو اليتم بوجود الأم، والأكثر والأكثر والأكثر رعباً هو اليتم بوجود أم تلوح لأطفالها من الشارع المقابل، وكأن واجبها يقتصر علىإرسال الإشارات والقبلات الهوائية لهم وهي تمضي كسحابة صيف.

- كل هذا تحملينه بداخل قلبك عني يا "سهيلة"؟

لم تجِب سهيلة، وولّت وجهها الناحية الأخرى، وقد عقدت جبينها حانقة، أما "نادية"قفد انتابتها قشعريرة من فرط ما أرعبها كلام ابنتها، إنها لم تنتبه لكل ما قالته "سهيلة"، وعاشت العمر غير مدركة إلى أن بناتها قد يتأثرن لهذا الحد، وتفشل حياتهن العاطفية والاجتماعية والنفسية بهذه الدرجة،إنها لم تكن تدرك أهميتها وأهمية وجودها، سواء تركت بناتها راضية أو مرغمة أو كارهة،لقد ضاعت الفتيات، وما كان قد كان، إن الوقت ليس في صالحها تحت ضغط ورم سرطاني،إنه سباق مع زمن المستقبل، وصراع مع الماضي، ومحاولة لعقد صفقة مصالحة مع الحاضر، يا وليها من عذابها.

دخلت الممرضة؛ لفحص "سهيلة" وإعطائها الدواء، ثم توجهت بحديثها إلى الأم.

- للمريضة كشف لدى طبيب نفسي الآن، ومراعاة لوضعها الصحي سنأخذها بكرسي متحرك.
- سوف أرافقها.

قطعت "سهيلة" حديثهما:

- لن أذهب.

خرجت "نادية" من طور أعصابها، فنهرت "سهيلة":

- لستِ أنت من تحددين، أنت غير مسئولة عن نفسك من الأساس، ستذهبين للكشف.
- افعلوا ما تشاؤون.
- أحضري الكرسي رجاءً.

هنالك شيء سأستفسر عنه في الاستقبال وآتي سريعاً. ذهبت "نادية"إلى الكافتيريا تبحث عن "طه" حتى وجدته.

- هلا ساعدتني يا "طه".
- بالتأكيد سيدتي.
- سأذهب الآن وابنتي "سهيلة" للكشف، أريد منك صنيعاً لا يعرف به أحد سوانا، أريدك أن تدخل حجرة ابنتي، وأسفل وسادتها ستجد شيئاً مخبئاً، أعلم أنه لا يجوز فعل ذلك، ولكنني صدقاًأحاول

مساعدتها، تُخرج هذا الشيء وتعرف ما هو، ثم ترجعه مكانه قبل وصولنا، وسأحاول أن نتأخر قدر الإمكان.

- لا تقلقي سيدتي سوف أفعل مادام هذا في صالح المريضة.
- شكراً يا "طه"، خذ هذا.

وفلتت من أصبعها خاتماً وأعطته له وهو بدوره أخذه دون أياعتراض ولو مجاملة. أثناءمرور "نادية"بـ"سهيلة" من المصعد تقابلت والممرضة المشرفة على تمريضها.

- ألم أنبّه عليك أيتها العنيدة أن تتعاملي كمريضة وليس كمرافقة.
- يا آنسة أنا أتعامل كأم وليس كمريضة أو مرافقة، هذه هي ابنتي الجالسة فوق كرسي متحرك.
- وكذلك حالتك سيئة.. بالمصادفة إن تقرير أشعتك تم استلامه، وسيحدد لك الطبيب عملية في فقرات العمود الفقري القطنية، كيف سكتّ على حالتك تلك كل هذا؟ من الجائز أن يصيبك سوء أكبر إن لم تتبعي التعليمات.

تدخلت "سهيلة":

- كله من هزّ الوسط.

ردّت "نادية":

- بل من قبلهامن سنوات الانحناء بالساعات في مسح المصاعد، ادفعي معي يا آنسة الكرسي حتى ندخل لحجرة الكشف.

استقبل الطبيب "نادية" على أنها المريضة، فأصلحت له سوء الفهم.

- لا، بل ابنتي هي المريضة، أنا مرافقتها.
- اعذريني يا مدام، فالمنطق يقول إن من تدخل على طبيب نفسي قبل غروب الشمس، وهي ترتدي فستان سهرة ذهبياً مرصعاًبالترتر والخرز فهي المريضة.

ظلت تعابير وجهها على حالها، وهي تدافع عن نفسها:

- لقد كنت في حفل.

قاطعتها "سهيلة":

- تقصد الكازينو.
- أياً كان، كنت في مكان احتفال حين جاءني خبر حادث ابنتي، هل كنت سأفكر فيما سيقال عني أم أذهب لأنجد ابنتي؟

أجابت "سهيلة":

- بل تكملي وصلتك.
- أيتها المريضة الشقية، فيما يبدو أن نجمك لا يتفق مع نجم والدتك، فكلما تكلمت كلمة عارضتها فيه، يحسن أن نضع الأم جانباً، ونتحدث نحن سوياً.

- في تقريرك الطبي مكتوب عندي: بتر في إصبع القدم الكبير، وكسر في الكوع، وعدة رضوض وكدمات.. ما هذا كله.
- أمراضي.
- نأخذها واحدة واحدة.. من بتر إصبعك؟
- أنا.
- لماذا؟ وكيف؟
- لا أعلم، استيقظت على الألم.
- وماذا عن الكسر والرضوض الواضح أن سببها سقوط؟
- نعم سقطت، وأنا أصلح مصباح الشرفة.
- عظيم، وكان هذا قبل الظهر تصلحين المصباح في عز النهار.
- وما المانع؟
- صحيح فعل الخير جائز في أي وقت، ما مشكلتك؟
- ليس عندي مشاكل.
- ما سبب تعاستك؟
- أنا لست تعيسة من الأساس.
- لماذا أنت عندي الآن؟
- أنا مثلك لا أعلم، أخبروني بأن لديّ كشفاً نفسياً.
- هل تعانين أي اضطرابات من أي نوع؟ مزاج، نوم، طعام...

- لا.
- اجعليني أساعدك.
- ساعدني كيف شئت.
- كيف وهذا يعتمد على إجابتك؟
- وهل أكذب لتؤدي حضرتك عملك،فأمثل أنا دور المريضة النفسية لتثبت نفسك كطبيب نفسي؟
- أنت صعبة المراس، وعموماًهذه مهدئات ومنوم وقت الحاجة، الطبيب لا يساعد المريض إلا إذا طلب المريض نفسه المساعدة.

بعد خروجهما من الكشف النفسي، مالت "نادية" على "سهيلة"، وهمست في أذنها: "تعالي لنهرب من المشفى"، نظرت "سهيلة" في عيون والدتها، كم أرادت بالفعل الهروب، الهروب من أي مكان تكون فيه، المهم أن تشعر بأنها تحررت، من سجن الأماكن إلى الصوت المدوي في الفضاء إلى الحشود ذات الهالات البيضاء فوق رؤوسهم، وفوق التلال التي لا يحدها البصر إلى حيث الأفق المنبسط، إلى حضن الغيمات الناعمة، فإن الأرض بما وسعت ما هي إلا شقوق مرممة وتفجرات حمم وأبراج متهاوية، إن كل الحياة أمامها إما أوهام أو دمار، والبشر خفافيش تضرب بأجنحتها فوق وجهها، تزيحها فتردها بلطمات صوب الجدار الملطخ بدماء جروحها، ثم تدور على عقبيها حتى تدخل هيكل

وحدتها، وتنصهر في صهاريج وحشتها بداخل آبار قلبها الخاوي تستأنس بصوت الأشباح من حولها. سألت والدتها:

- إلى أين؟

فأجابت:

- إلى السماء.

فرشت سجادتي صلاة بعد وضوئهما، وصلتا جماعة، ثم سكون فاقتراب أعقبه حضن لم يكن لكل قوى الأرض أن يفصل فيه بينهما، ما أحلى رجوعك إليّ، ما أحلى رجوعي إليك، ما أحلى رجوعنا إليه..قالتها "نادية" راضية.

بعد أن أطعمت طفليها توجهت "سندس" لحجرة "سيرين"، تتعجب من القدر الذي لاحقهم هم الثلاثة مرة واحدة، مدخلاً والدتهن في المنتصف بينهن بعد قطيعة سنوات، ثم التفتت إلىابنيها تراقب حركاتهما الطفولية، لدقيقة وضعت نفسها مكان أمها، وفكرت إذا كانت ستستطيع تركهما لأي سبب حتى وإن انفصلت عن والدهما، ثم اغرورقت عيناها بالدموع،إن الأمومة ليست فقط ملاطفة واعتناء، هي شعور غريزي غير مبرر،وسألت نفسها: كيف هو قلب أمها؟ ومن أي مادة مصنوع؟ ولكن لكي تفهم فعليها أن ترجع للوراء عشرات

السنوات منذ أن تزوجت أمها أباها، وتضع نفسها في كل ظرف من ظروفها، ثم على هذا تقرر، مهاجمتها أوعذرهاإن كانت مغلوبة على أمرها، وإن كان هنالك بالفعل سبب واقعي يجعل الأم تتخلى عن أبنائها، خاصة إن كن فتيات، وهن الأكثر حاجة لها، فتدرك فارق الطبائع بين الأب والأم اتجاه الأبناء، وهل وجب أن يكون هنالك فارق،ثم قالت لنفسها: لا، إن جميعها خسائر حال تخلى طرف عن دوره.

كانت مستلقية على فراشها، وقد أفاقت من الغيبوبة، فتذكرت "ميشو"، فرجعت لغيبوبتها مرة أخرى ثم أخيراً أفاقت، أول ما فعلته هوأن مدّت يدها لحقيبتها تراجع ملف الاتصالات، وإن كان "ميشو" هاتفها أم لا.

لا لا يوجد اتصال منه، خرجت من سويداء قلبها تنهيدة حارة، وقالت في نفسها: "هذا النوع من الرجال غير ناضج، ونزواته غالبة، يريد امتلاك كل امرأة قابلها بفرض سلطته عليها، ولكنه تظل غيرهن جميعاً، فهو يحبها، بالتأكيد يحبها، والحب ينكر أي نزوة"، لكنها تراجعت تحدث نفسها أيضاً: "إنه خائن وخانها يوم قرر أن يصالحها ولم يحترمها، لن تحنّ له"،وضعت كفّها فوق قلبها، إنهلايزال معلقاً به لا يريد تركه، ثم رجعت بذكرياتها معه وأول لقاء بينهما.

- لماذا لم تعطِني من السجائر مثل الباقي، وأنا سوف أدفع لك مثلهم.
- اذهبي، ليس لك عندي سجائر.
- لا، معك لقد رأيت أن معك فائضاً.
- ارحلي، ولا تطلبي سجائر أبداً، لا مني ولا من غيري، هل فهمتِ؟

كان ينهرها ويزيحها بيده لترحل مراراً وتكراراً،ثم توقّف وتقدم منها خطوتين يحدق ملياً في الوجه المقابل، وسألها.

- أتقبلينني إذا أعطيتك السجائر ودون مال أيضاً.

هنا ودون تفاوض صفعته، وبصقت في وجهه، وقبل أن تضربه بحقيبتها أمسكها منها، وهو ينظر بعمق أكبر بداخل عيونها العسليتين الغائرتين.

- أنت لست مثلهم، ارحلي ولا ترجعي.
- وأنت غير محترم.
- نعم هو كذلك، لكنك محترمة.

تركته وأثناء سيرها رأت ظله يتعقبها، فتوقفت، والتفتت إليه.

- أنت تلاحقني ككلب، وهذا ليس عجيباً من واحد مثلك.
- نعم ألاحقك ككلب حراسة، وهذا يشرّفني آنستي.
- ألن تخطفني وتغتصبني؟
- كان بودّي، ولكن لا لن أفعل ذلك.

- أنا أشرب الحشيش ومثلهم.
- أنت مختلفة.
- ومن أخبرك؟
- إحساسي.
- لا، أنا سيئة.
- لستِ سيئة.
- بل سيئة.
- قلت لك لا.

ثم أخذ منها حقيبتها وضربها فوق رأسها، وهو يقول:

- إذا قلتُ كلمة لا تراجعيني فيها.

اغتاظت"سيرين" منه، فراحت تلملم الأحجار الصغيرةمن الشارع وتلقيها عليه، ويداها تتلاحقان واحدة وراء الأخرى ترجمه، وما كان من "ميشو"إلا أن هرب بحقيبتها حتى اختفى عن نظرها، هدأت واستقرت نفسها برحيله، لكن تذكرت أن الحقيبة تحمل أموالها وهاتفها، وهي في منتصف الشارع، ولا تمتلك حتى أجرة المواصلات، جلست على الرصيف تفكر في حلّ لورطتها، وبينما تفكر، أبصرت حقيبتها تتدلى

أمامها، كان "ميشو" يمسكها بأطراف أصابعه أمامه يؤرجحها، اختطفتها منه وهرولت سريعاً.

في المنزل، وبينما تتفقد محتويات حقيبتها وجدت خمس سجائر محشوّة، ورسالة كتب لها فيها:"هذا رقمي إن احتجت لشيء"، سريعاً سجّلت الرقم وهاتفته، ومن تلك اللحظة أصبحا صديقين، لم يقل لها يوماً أنه يحبها، لكنها شعرت بهذا الحب، وكذلك هي لم تعترف له، لكنه شعر بنفس الشعور، ولم يسألها إن كانت تحبه حقاً أم لا، علاقة طفولية عن حالة غرام.

تنهدت "سيرين"،وكانت لاتزال مستلقية فوق فراش المرض تنظر إلى المحلول الملحي الذي ينقط من خلال أنبوب يسري فيه إلى وريدها، تتذكر الشموع حين كانت تحترق، وتنقط فوق كعكة صغيرة، ليلة رأس السنة، يحتفلان بأول لقاء جمعهما منذ ثلاثة أعوام، في ليلة خلت من نجوم السماء محشوران أسفل طاولة في حديقة عامة حتى لايطفئ المطر الشموع.

- قد نحتفل بيوم اللقاء الأول للمرة العشرين، ولكن لن نكون تحت سقف خرساني يحيط بنا أربعة جدران.
- كنت أود لو أنجبت منك طفلاً.
- هذا مستحيل، لا يمكن أن نتزوج.

- هل ستتزوج بغيري يا "ميشو"؟
- لا مستحيل، فأنا لا أتخيل أن أعيش مع وجه غير وجهك، أحدّث غيرك، أسمع صوتاً غير صوتك، ولا أن أحب غيرك،هذه الفكرة تثير حنقي.
- الزواج سيجعلنا نفعل تلك الأمور طوال اليوم، وسوف نختصر كل سنتيمتر بيننا.
- ثم ينتهي الحب، لتعلمي أنه بعدم زواجي منك أحافظ على هذا الحب؛ لأنني أخاف أن أفقده، ساعديني يا "سيرين" في الحفاظ عليك وعلى حبنا، أتريدين أن تكوني محطة أم امرأة دائمة.
- بالتأكيد دائمة.
- أعدك بأن تظل جمرة الشوق متقدة بيننا لا تخمد أبداً، عديني أنت أيضاً.
- أعدك يا "ميشو".

تنهيدة أخرى، قابلها صوت أختها "سندس".

- "سيرين" حبيبتي سلامتك يا صغيرتي.

ثم أخذتها بين ذراعها.

- متى تتحسن صحتك سوف أعزمك على مطعم اكتشفته اليوم.

ابتسمت "سيرين" ولم تجِب.

- ليس من عادتك الصمت.

- لأنني مرهقة يا "سندس".

- أعلم يا "سيرين"أنه ليس فقط هبوط الضغط، من الأفضل أن تتحدثي مع والدتك.

- أين هي منا يا "سندس"؟

- على الأقل سيهدأ قلبك، انظري لنفسك، لقد تحولت إلى قطعة نسيج مهترئة وذائبة، تأملي مجرى الأمور، فإن هذه المحنة التي جمعتنا لم تكن مصادفة، إنه القدر جمعنا.

## -10-

- لم يعد قادراً على الكذب على نفسه، إنه خطؤه أن فصل البنات عن أمهن، فبرغم مهنة الأم وما يشوبها فهي كأم لم تكن أماً سيئة، قاسية هذا صحيح، ولكن ما من شيء في حياتها إلا وكان قاسياً، إنه نصيبها أن تتزوج برجل كان وحيد أمه التي ترملت ولم يكمل عامه الثاني، فوهبته نفسها وكل ما تملك، دللته برغم ضيق الحال، لم تكن لديه حاجة إلا وكانت مجابة، وفّرت عافيته على حساب صحتها، وسعادته على حساب شقائها، وما أن انتهى من تعليمه المتوسط حتى زوّجته فتاة على عينها، صغيرة لكن صبورة ومتحاملة، شبه مقطوعة الأهل؛ فهي يتيمة الأبوين، وكل إخوانها يكبرونها بعدد من السنين ليس بقليل.

و"نادية"برغم الشقاء الذي اعتادته كانت تأمل في حال أيسر وراحة عما كانت عليه في منزل عماتها وخالاتها، يكفي أن تستقر وتجد من يتكفلها، لكن هيهات أن تكتمل الحياة، فهو على عكسها، وهي النشيطة الدؤوب وهو كسول ومتراخ، فكرت "نادية" أنها لو سكنت لسكونه لماتت من ذل الحاجة لوالدته التي تعيش في نفس المنزل، فقررت الخروج إلى الشارع تدقّ أبواب العمل حتى وصلت إلى مكتب تخديم، مكتب التخديم كان الوحيد الذي لم يطلب منها شهادة

دراسية، تكفي شهادة الطبيب، كان المكتب قبل قبولهن يجري عليهن فحصاً شاملاًمن تجتزْه تُقبل، وكانت "نادية"لا تزال عفية وقوية، خفيفة الحركة سريعة الهمة، وكانت واللائي في مثل قوتها من نصيب السادة من الأثرياء وأصحاب المناصب، ومن كنّ على قدر حالهن يوزعهن صاحب العمل على أصحاب الطبقة الوسطى من الموظفين وميسوري الحال، منهن من تعمل قطاعي، ومنهن من تعمل بشكل دائم بداخل البيوت، جرت العادة أن المتزوجات كن يعملن بالطلب؛ وذلك لصعوبة مبيتهن خارج بيوتهن.

كان العمل شاقاً ولكن مربحاً خاصة في المناسبات، وعُرِفت "نادية" بالاسم حتى أصبحت تُطلب من دون وساطة المكتب، ثم أصبحت تعمل لنفسها إلا في ظروف طارئة يترجاها فيهاالمديرأن تسدّ حاجة المكتب في وقت مناسبة لشخصية مهمة، فمن يقدر على تشريفه وتلميع لوحة المكتب أمام الزبائن سوى "نادية".

وكانت "نادية" لا تجد متعة في حياتها سوى الرقص الشرقي، إذا ما حزنت رقصت، إذا فرحت رقصت، وإذا ما شعرت بالغصة في قلبها وطفح كأس صبرها رقصت، تنفض مع اهتزاز جسدها كل عوالق الدنيا التي التصقت كالغِراء بروحها، تدور على أطراف أصابعها، فتشعر بأن الحظ قد دار معها، تميل وتميل إلى ميلها الدنيا، يتلوى

خصرها كخط زجزاج يمحو آلامها، وعلى كفيها الممدودين يسقط مطر الفرح، شعلة زوت وبالرقص اشتعلت، وما أن ينهي التعب ولاشيء سوى التعب رقصتها تشعر بروح جديدة قد ذابت حباً ووجداً للحياة في عذوبة كاملة.

رقصت لقدَرها في هذه الليلة، أعجب بها واحد من الضيوف، فباعها لصاحب ملهى ليلي كوسيط، ولم تترك زوجها الأول والد بناتها، بل طلبت منه الرضا، فرفض وطلّقها، ولم تتزوج للمرة الثانية إلا بعد سنوات ليس بغرض الزواج،إنما بغرض الرحمة والشفقة على صاحب الملهى الرجل السبعيني الأرمل، والذي أصيب تقريباً بكل مرض في الدنيا، وحدها "نادية" وقفت إلىجواره وقت تخلي كل البشر، لم تطلب منه مقابلاً ولا ثمناً، وبعد موته تجمّع أبناؤه مهددين يعرضون عليها اتفاقية مصالحة، وإما شوهوا لها وجهها، مبلغ يسير مقابل نصيبها في الإرث، وضعت المبلغ وفوقه كل ما دبّرته طوال سني عملها، ولم يكن قليلاً، واشترت الملهى، وقد وجد أبناء الزوج في هذه الصفقة مكسباً، لم تنسَ "نادية" بناتها في الواقع،إنما تناستهم بتعاطي المخدرات حتى أدمنت، كلما حنّ فؤادها هربت إلى النسيان، وحقنت نفسها، ثم تطوّر إدمانها مع شدة حنين قلبها، ولتهدئ القلب المحترق خدّرت عقلها بالهيروين.

خرجت "نادية" مع "سهيلة" من عند الطبيب النفسي مخيبة الآمال في معرفة سبب مرض ابنتها وعلاجه، لا ليس مرضاً واحداًإن بناتها الثلاثة مريضات،وكذلك هي مريضة،لكنها تختلف عنهن،إنها أخذت مناعة، تحجّر قلبها في الماضي،وها قد دبت فيه الحياة برجوعها إليهن، وأول بدايات حياته كانت بكاء كبكاء الوليد.

لم يكن صعباً على "طه" دخول حجرة "سهيلة" بأي حجة، أو بدون، رفع الوسادة فوجد دفتر المذكرات، وحتى يستغل الوقت، فقد فتح أزرار قميصه، أدخل الدفتر وأغلق القميص، فالجاكت وخرج بصينية تحمل أكواباً فارغة، وبالمشفى كان يوجد ركن إداري يحوي آلة طابعة، طبع"طه" عليها كل ما حوى الدفتر، ثم رجع للكافتيريا، أعدّ كوب شاي حمله إلى حجرة سهيلة، وهناك وضع الدفتر في نفس مكانه، ثم أفرغ كوب الشاي في الحوض، وخرج مرة أخرى، كان "طه" قد أتمّ مهمته، فهاتف "نادية" على الفور، وطلب لقاءها قبل انتهاء ورديته، أودعت الأم ابنتها، وهرولت على عجلة من فضولها.

"سهيلة" تحب اكتئابها؟!أي مرض هذا الذي يجعل الانسان يتخذ مرضه حبيباً؟ أسقطت "نادية" رأسها بين راحة كفيها، إن كانت تدفع ثمن ذنب ارتكبته أوإثم اقترفته فما ذنب بناتها، زمّت شفتيها وازدرأت ريقها، وقالت بصوت عالٍ مسموع: "لا ليس للبنات ذنب،إنهن زهرات

وثلاث شموس في الحياة، ظلم لهن أن يعرفن الوجع، وأن تلفحهن الحياة بسعير عذابها، لن أجعل ذلك يحدث ما دمت حية"، ثم لملمت الأوراق وأخبرت "طه"بأنها سوف تأخذ الورق، وترجع للطبيب، لكنه أقنعها من أنه لا طائل من هذا مادام من الممكن أن يجربا حلاً آخر بعيداً عن تدخّل العلم والحلول المنطقية، فعلاج اللامنطق لابد وأن يكون باللامنطق.

تذكرت "نادية" ابنتها"سيرين"، وأنها هي الأخرى محجوزة في عنبر آخر، فتركت الأوراق مع "طه"، وراحت تركض وراء قلبها إلى"سيرين"، هنالك كانت "سندس" مازالت ترافق أختها، دخلت عليهما "نادية" وهي تمشي منحنية ملتف ذراعها وراء ظهرها تضغطبيدها على فقرات ظهرها السفلى.

- ما بك يا أمي؟
- ظهري يا "سندس"، أفسحي لي.

استلقت "نادية" فوق الأريكة، وفردت ساقيها وهي تئنّ.

- "سندس" اذهبي أنت للمنزل، معك أطفال والمشفى ليس مكاناً لهما.
- لا بل سأظل معكن.

- طفلاك سيتعبان، المشفى جوّه قد يمرضهما، وهل سنحجز المشفى لحسابنا؟! لم يتبقّ سوى قسم الأطفال، ونقدم عرضاً بشرائها لدواعي المنفعة الأسرية!
- سأتصرف، لن أبقيهما في المشفى لا تقلقي.
- يخرب بيت عناد أمك، كل واحدة منكن أخذت مني شيئاً غبياً.

سألت "سيرين":

- وماذا أخذت أنا مادامت "سندس" أخذت العناد؟
- أنت أخذت الهبل، صدقيني لا أسخر، الطيبة والكرم حد الهبل أن تحبي فتعطي حتى ينقسم ظهرك، لقد أحببت أباكن، ولم أحب غيره حتى قسم ظهري حبه.

ضحت "سندس" وسألت:

- و"سهيلة" ماذا أخذت منك؟
- أخذت الشعور بالذنب وجلد الذات والقسوة على النفس والغير.
- اترككما أنا وأذهب لأصرف "فريدة" و"مهاب".

إنها حجّتها لزيارة "طارق"، إنه ومنذ حظرته قلبها يتآكل لمعرفة أخباره، ثم شعور بالذنب تجاهه بدأ يؤنبها، حيث إنها منعت عنه الطفلين منذ خصامهما، دخلت الحمام، وأخرجت أدوات زينتها، لتبدو كأن الفراق لم يؤثر فيها، عدلت حجابها، كانت "سندس" هي المحجبة بين أخواتها،

والأكثر احتشاماً.وكانت "سيرين" أكثرهن تحرراً ظاهرياً تحب كل موضة غريبة، وتواكب الجديد في صيحات صبغات الشعر والماكياج، أما "سهيلة" فقد كانت تنكر أنوثتها بكل شكل، فترتدي الملابس الصبيانية وتقصّ شعرها كالولد، لا تستخدم المكياج مطلقاًأو الإكسسوارات، تمارس ذكورة مصطنعة مجاهدة في إبداء الخشونة في الصوت والتعامل والهيئة العامة.

"طارق" في منزله، وقد طلب إجازة مرضية لأسبوع، فكيف يعمل من كان قلبه عليلاً.يجلس أمام التلفازيقلب قنواته بسأم، يقشر بذور اللب، ويلقي بقشوره حوله إلىجوار العلب وأكياس الشيبس الفارغة، دق جرس الباب، لكنه قرر عدم فتح الباب، وليحترق الطارق، فلقد قرر أنه لن يفتح باباً بعدما أغلقت "قمر" بابها حتى تعود إليه، كانت "سندس"لا تزال تضغط على الجرس وهي متيقنة من أن "طارق" بالداخل، فصوت التلفاز مرتفع، أمسكت بهاتفها، وراحت تتصل به، لكنه أيضاً لم يرد، فقالت مغتاظة: "لكن لو كنت"قمر" لكان فتح دماغه لها، وليس هاتفه فقط"، ولما فاض بها راحت تطرق على الباب بكلتا يديها، وطلبت من ابنتها فعل ذلك أيضاً، مصممة على جعله يفتح الباب، ولو اضطرت إلى كسره.علم "طارق" أنها "سندس"، فلا

أحد يفعل تلك الحركات سواها، فركض يفتح الباب قبل أن تكسره بالفعل.

- هل جننتِ؟ ماذا تريدين؟
- لا تنهرني، ودعني أدخل منزلي.
- أليست مفاتيحك معك؟
- لا، ليست معي، دعني أدخل.

ثم أزاحته بيدها، راح نظرها أول ما راح على باب غرفة النوم، فوجدته مغلقاً تماما كما قال لها حين كانت تحدثه كـ"قمر" أنه أغلق حجرة النوم، ولم يعد يفتحها بتاتاً، ترقرقت الدموع في عينيها وشعرت بغصة، وساورتها غيرة كبيرة اتجاه غريمتها الافتراضية والتي صنعتها بيدها، ثم نظرت للصالة التي حوّلها إلى مقلب نفاية محاولة اخفاء تأثرها وانفعالها.

- منذ متى كان المنزل هكذا، ان الغبار يعلو كل ركن فيه؟

ثم هرولت تحضر المكنسة، وأخذت تكنس وتلملم الفضلات وترتب.

- ألهذا جئتِ؟

سألها ثم صمت، في قلبها إجابة بأنها لم تأتِ إلا من أجل أن تراه، لكنها عاكست ما في قلبها، ودت لو ألقت بنفسها فوق صدره واعترفت بالحقيقة ولكنها وقالت:

- بل جئت لأعطيك الطفلين، إن أختاي مريضتان، وكذلك أمي، وعليّ الاعتناء بهن.
- لن أقدر، فأنا أيضاً مريض.
- مريض بماذا؟

قالتها منفعلة، فنظر نحو عينيها ولما وجد أن حوار العيون طال حول بصره عنها وغير اتجاه وجهته موليا ظهره ، ربما لمس بداخله حنين نحوها وبقايا مشاعر، فخاف أن تأخذه بها عاطفة وقال.

- ان كان أمري يهمك حقا ارحلي وتأكدي بأني سأكون في أحسن حال.
- اننا ندنو من الفراق.

ضحك "طارق" ساخرا ولم يكن عنده الطاقة للجدل واخبارها أنهما بالفعل قد افترقا وأنتهيا، فأخذ الطفلين ودخل بهما إلى حجرتيهما تاركاً "سندس" التي خلفته، تريد أن تقول له الحقيقة ولا تريد، إنها لا تعترف بالخضوع لمن تحب، فخضعت لكبريائها، إنها أحبته، ولكن لا تعرف كيفية ممارسة هذا الحب، فضيعته

وهي تقصد الاحتفاظ به، توسط الطفلان وراح يلعب معهما متعمدا ابداء التجاهل ازاء سندس التي كانت تقف عند باب الحجرة تطالعه باهتمام، وسألته:

- هل من جديد في حياتك؟
- نعم.
- وما هو؟
- وما دخلك؟
- أنا أيضاً عندي جديد.
- أتمنى لك السعادة مع جديدك، قريباً سننتهي ليبدأ كل منا من جديد مع جديده.
- نعم سيحدث، وسأكون أسعد إنسانة في العالم، لكنك فيما يبدو أنك حزين، لقد تبدلت تبدلا لا يرثى لك فيه أنظر لنفسك في المرآة.
- لا لست حزيناً بالعكس، أنا فرح، فرح جداً، أتريدين أن ألفّ خصري بحزام وأرقص لتتأكدي.
- لا لا ليس أمام الطفلين.
- أليست عائلتك مريضة، هيا إنهن يحتجن إليك، ولا تقلقي على الطفلين، هيا اذهبي.

ثم سحبها من ذراعها لباب الشقة، فتح الباب وأخرجها وأغلق الباب سريعاً.

اتكأت بظهرها على الباب تعضّ كفها ندماً على غبائها الذي ظنت في يوم أنه ذكاء منها، هي المرأة، ولو كانت أذكى إنسان تكون مع حبها غبية الغبيات، تختلط عليها الشمس بالقمر، وتلتبس بين الوهم والواقع، ان ما أصابها من قسوة ما كان الا من فرط حبها له وهي في حين ذلك كانت أقرب ما تكون لحتفها، ركلت الباب بقدمها ورحلت غير راضية عن رحيلها، وهي تردد لنفسها: "إن أمي ستحلّ كل الأمور".

رجعت سندس إلى المشفى متوجهةً بشكل تلقائي إلى حجرة "سيرين"، تبكي بكاء مرا كأنها جائت للتو من قبر صاحبه عزيز عليها، الأن تخلع عنها عبائة كبريائها وتقر بأنه موجود بداخل كل الشقوق التي خلفها تصدع علاقتهما، كل الأسباب لم تؤثر على أساس عاطفتها، كل الصمت البارد بينهما، وهدوء الموتى وروتين العلاقة الزوجية التي كانا يؤديانها كفرض واجب لتلميذان فاشلان يحتاجان لكل نقطة ليحافظا على أقل درجة نجاح، الأن تخلع عبائة كبريائها خلف الباب الذي أوصدته ثم دخلته مرة أخرى متنكره تنكر ذاتها، انه نفاق من نوع آخر

معاكس لنفاق آولئك ممن يزعمون أنهم أحبوا بصدق ووعي فيقولون كلاما لم يحسونه ويسجلون وعودا يعلمون أنهم لن ينفذوها.

كانت المشفى تشرف على شارع رئيسي في الجانب الأخر منه تراصت كافيهات ومطاعم واحد منهم كان مطعم بيتزا مشهور ، دخلت سندس مطعم البيتزا تتلفت حولها حذار أن يكون أحدا فيه ممن يعرفونها اذ أن الموقع قريب من مقر عملها، وقفت أمام ريون تقديم الطلبات وطلبت أكبر حجم لبيتزا بكرات الجبن وقطع الفراخ الحارة محشوة الأطراف بالجبن والسوسيس، أستلمت طلبها ثم تسللت الى الحمامات منزوية سريعا بداخل وحد جلست فوق القاعدة وفكت البيتزا وراحت تلتهم مثلثاتها بجشع واحد تلو الأخر تتوقف لثواني تتنفس بسرعة لاهثة ثم تكمل الأكل بنفس الطريقة حتى انتهت تماما، بعدها على الفور وضعت الصندوق الفارغ ارضا ورفعت قاعدة الحمام وراحت تستفرغ كل ما أكلته مرة واحدة، شدت السيفون وأغلقت القاعدة، أخرجت منديلا مبللا من حقيبتها مسحت به أثار الطعام حول فمها ثم خرجت واثقة من نفسها هادئة وقفت قليلا أمام مرآة المرحاض تعدل حجابها ثم خرجت متوجهة الى المشفى، ذهبت سندس الى أختها سيرين، إذ إن علاقة "سندس"بـ"سيرين" كانت أقوى بكثير منها مع "سهيلة" التي كانت بطبيعتها منطوية على نفسها ومنعزلة.

- كيف مضى الحال مع "طارق"؟
- وما أدراك أنني كنت مع "طارق"؟
- عند من كنت ستودعين الطفلين بحق عقلك؟ ثم أليست تلك هي حجّتك لرؤيته؟
- حسناً، نعم.
- هل تصالحتما؟
- لا لم يصالحني.
- وكيف يصالحك إذا كان ملبوساً بقمرك يا ظلمة الزمان.
- لا أعلم، ظننته سينساها حين يراني.
- أتريدين للظلام أن ينسيه القمر، ثم تلك كانت فرصتك لتعترفي له بكل شيء.
- إن لم تكوني مريضة لجذبتك من شعرك ودرت بك أمسح الأرض، اخرسي ولا تزيدي غيظي.
- بل أنت المريضة، زوجك وتحبينه ويحبك، ما المانع إن صالحته أنت، خاصة أنك المخطئة.
- خانني ولا يزال.
- ألا تلاحظين أنكما كنتما كالغريبين في منزل واحد، البعد جعلكما تتعرفان على بعض، تكتشفان بعضكما على مهل.

- وماذا عن الإخلاص والمحافظة على العهد.
- الحب يجعل الإنسان مخلصاً.
- لكنني لا أستطيع المواجهة، فقد يكره الاثنين أنا و"قمر".
- عليك أن تثقي بقلبه وبنفسك، أن تؤمني بأنه قادر على الاحتفاظ بك، فالحب هو ثقة القلب بالقلب.
- هل بحت بحالك أنت أيضاً يا "سيرين" لوالدتك.
- نعم حدثتها بكل شيء.
- وماذا كان ردّ فعلها.
- صرخت، وظلت تصرخ حتى أخذوها لحجرتها.
- تستحق ما يحدث لها، دعيها تشعر بالأمومة المركّزة.

قالتها "سندس" وهي تضحك حتى دمعت عيناها.

- وأين والدنا لم أره منذ وقت؟
- لا أعلم لعله في المنزل ذهب لينام كعادته في المواقف الحاسمة.. ذكّرتني، سأذهب لأطمئن على "سهيلة".
- ريحي بالك وقدميك، أختك بلغني أنها تطرد كل من يدخل حجرتها، وقد قامت إدارة المشفى بعدة ردود فعل حيال حالة هياجها، أغلقوا الشرفة بالمسامير، وجعلوا واحداً من أفراد الأمن خارج حجرتها.

- من الجيد وجود "واي فاي" هنا، سوف أفكّ الحظر عن "طارق" لأطمئن على الطفلين.
- كما تشائين يا ظلمة الزمان.

## -11-

"طه" وبعد انتهائه من ورديته ذهب وكعادته كل ليلة جمعة إلى مكانه المفضل في العالم كله، هنالك حيث تخرج أوتاره لحنها على أوتار العود، طوق نجاته في بحر الهموم.إنه صوت العود يصوّر في السكون هالة من النور تبدأ من نقطة ثباته حتى مرمى بصره، يمسك العود فيلثمه كطقس من طقوس ناسكمترهب يلثم كتابه المقدس، ثم يضعه فوق ساقيه محتضناً صدفته، يمسك بالريشة ويجمع لقاءها بالوتر، فتخرج الأوتار المرتعشة في النفس الهشة أسرارها تفتت المشاعر.

هذه الليلة كان لحنه مختلفاً، فرسائل "سهيلة" بداخل جيبه يشعر كأنها مرسلة له كُتِبت له بالقلم يردّ هو عليها بالوتر.

حبيبتي "سهيلة"..

وصلني صوتك المرسل إليّ بالحبر عبر أثير لا تدركينه، لكنه القدر قدّره كوصلة لقاء بيني وبينك، قادني نحوك، وقادك نحوي، وليس لي أو لك يد في ترتيب هذا اللقاء، خرج من بين سطورك سرب حمام أيقظني من السبات، ثم حملني وطار بي وسط الضباب والضلال، وكان عبير التوق هو الدليل حتى طوينا المسافات التي لا تقدّر بالزمان أو المكان وجئتك.

اكتئابك

وضع "طه" الرسالة بداخل مظروف، وقرر أن يوصلها إلى"سهيلة"."سهيلة"التيوبعد ما أثارته في القسم من حالة طوارئحتى اطمأنت على وحدتها، وتأكدت من أنه لن يتم عرضها على طبيب نفسي مرة أخرى، أغلقت الباب وأحكمت غلقه، وجلست في منفاها الصغيرلا تريد بشراً،تودّ لو تلبس الناس جميعاً أقنعة، فلا ترى وجه واحد منهم، ثم أمسكت بالدفتر والقلم وراحت تراسل اكتئابها.

اكتئابيالحبيب..

خائفة فلا تتركني، خذني من يدي بالقوة، وشدّ على معصمي، ثم ارحل بي إلى ما شئت، ولكن طمئنّي في البداية أنك لن تتركني،إن نظرتي غريبة، وكلامي غريب، وكلي غريب ومريب، لكنك لن تتركني.. أتعدني؟

لا أريد محادثة أومقابلة أحد سواك، يقولون عنك اكتئاب، حزن ودمار وعليّ العلاج، لكن يقيني فيك أنك النجاة، لست أرفضك ولا أريد التخفف منك، إن كل ما أريده هو الرحيل معك إلى ما لا نهاية،إلى حيث يكون مكان الدمعات هو الشلال وليس العيون، حيث أكون حرة المشاعر أصرخ إذا شئت، وأصمت إذاشئت، دون أن يقول لي أحدهم: ما بك؟ نغلق المغاليق في وجه العالم، ونكتفي بخفايانا، تطوقني بحبائلك، فإذا ابتعدت عنك اختنقت.

ثم عدني ألا تشكرني لصبري وتحملي وقوة شكيمتي، لا تكافئني بالرحيل،فأنا لا أريد السعادة، أنت لا تعرف كيف أحبك، ولا كم أحبك، ولا لمَ أحبك؟ ولا أنا أعرف، فلا تتواطأ مع السعادة ضدي.

"سهيلة"

بعد ما سمعته "نادية" من "سيرين" وعن علاقتها العاطفية بموزع المخدرات ميشو الذي خططت لإبعاده عنها فلم تفلح خطتها انتابتها عصبية شديدة، فلم تكن تتخيل أن يوماً من الأمومة سيعادل سنين غيابها كلها، الوقت بعد العشاء، وكانت قلقة ألا يستطيع "سمير" الدخول بما طلبته منه، انتابها الصداع والزغللة، أكثر من أربعة وعشرين ساعة دون نوم، تأخذها دوامة تدور بها تلقفها من "سندس"إلى"سيرين"إلى"سهيلة"، كل فتاة منهن تحتاج لأم خاصة بها تحل مشاكلها، وهي واحدة فقط أمّ واحدة، فهل ستقدر، تدور وتدور وتدور حتى تدخل في نفق مظلم.

- مدام "نادية"، مدام "نادية".
- "سيرين"، "سندس"، "سهيلة".
- مدام "نادية".
- بناتي "سيرين""سهيلة""سندس".

تفتح عينيها متطلعة حولها، تسأل نفسها أين هي؟ وما الذي حدث؟

- مدام.. لقد كنت تحلمين.
- أحلم؟ أين أنا؟
- في المشفى.

مسحت رأسها، كان ذلك أمس حين أخبرها سمير أن "سهيلة" قد حُجِزت بالمشفى، نعم، تتذكر كل شيء الآن.

- بالخارج رجل يدعى أستاذ "سمير" يودّ زيارتك.
- نعم، "سمير"، أدخليه على الفور.

يدخل "سمير" يضع الحاجيات على الأرض، ويقبل مسلّماً على "نادية" التي تصرخ فيه:

- ملابسي ارفعها يا "سمير".
- آسف يا مدام، لقد انشغلت بك، ما الذي حل بك يا ست الكل؟
- وهل هنالك سواه عمودي الفقري الله يفقره.
- قلنا نسافر ونعمل العملية بالخارج منذ سنوات، أنت خفتِ.
- ومازلت خائفة، ولن أقوم بها، المهم هل أحضرت المعلوم.

يخرج "سمير" لفافة من جيب جاكته، ويقدمها لـ"نادية" التي بدورها تخبئها بداخل صدرها.

- أراكِ مهمومة.

- قلبي غير هادئ يا "سمير"، وكذلك قلوب بناتي.
- أنت على قدر المسئولية.
- لكني خائفة.
- حسبي بك أنك لا تكونين شجاعة إلا في شدة الشدة.

أخرجت "نادية" اللفافة، أمسكت بكيس صغير من بين عدة أكياس، أفرغته فوق ظهر كفّها تنتشقه دفعة واحدة، ثم استلقت على ظهرها، وقد ابيضّت حدقة عينها وارتفعت السوادان أسفل جفنيها.

- اذهب الآن يا "سمير"، دعني أسترح.
- والكازينو.
- ليحترق الكازينو، بناتي أولى، لعلها خاتمتي أفلا أحسنها؟
- تغيرت يا ملكة.
- ملكة فاشلة جبانة اختارت الحروب السهلة التي تجني منها الغنائم، وخلفت أهم معاركها.. اذهب يا "سمير" فإنني أعيد بناء مملكتي.

في صباح اليوم التالي، الأربعة نساء كنّ كل واحدة في وادٍ، سهيلة تحزم أمتعتها للخروج، "سيرين" تحتضن الهاتف طوال الليل وحتى الصباح تنتظر مكالمة "ميشو"، كلما أصدر الهاتف طنيناً تنبهت فلا يظهر لها سوى إشعار، لا تستطيع إنكار استسلامها له، معطية كل الأعذار دون سبب واضح، "سندس" وقد قضت شطراً كبيراً تهاتف "طارق"

منتحلة شخصية "قمر" استعادت حيويتها وبهجتها تجاه الحياة، خاصة أن "طارق" أصبح متعلقاً بها حدّ البكاء؛ لعودتها والتوسل لها ألا تتركه، وهو الذي طردها أمس، أما الأم فقد كانت تخطط بينما تشرب القهوة مع "طه":

- هذا كل شيء عن "سهيلة"، ما الذي تريد معرفته أيضاًيا "طه"؟
- قصتها مؤلمة. أين كنت أنت؟
- أخبرتك بجانب عني أيضاً.
- ليس مبرراً لترك بناتك كلياً، في الحقيقة أنت لم تبالي بهن مطلقاً.
- معك في أنني قصرت وأي تقصير، إنه التقصير الذي يقصر من السعادة والحياة بأكملها، كنت أعتقد أنهن سيشعرن بوجودي بعد موتي حين يرثوا عني كل ما تركته لهن، فيشعرن بالعوض والارتياح، ثم إنني كنت أخاف من ردود فعلهن وأقول اتركيهن، من تريدك ستأتي لك من نفسها، وحدها "سيرين" عرفت طريقي فقط لأجل المال، كنت أراقبهن واحدة واحدة، وأعرف كل أخبارهن بالتفصيل بخوف، وأراقب، أراقب أفراحهن وأتراحهن، لا توجد أم تحمّلَتْ كما تحملْتُ، هل تقدر أن تكون المرأة أماً ولا تستطيع ضم ابنتها ليلة زفافها، كانت سيارة عرس "سندس" تسير أمامي، وأنا ألحق بها بسيارتي أشيع أمومتي وعاطفتي؟ هل وصلك شعوري؟ وأن تكون أماً وتكون رافضاً

لزيجة واحدة من بناتك تعلم أنها بزواجها ستلقي نفسها في حفرة، لكنها غير قادرة على الاعتراض؟ أو أن ترى ابنتك تنحدر إلى وادٍ من الطين ولا تستطيع مدّ يدك، لقد كنت مهددة من والدهن ومن نظرة المجتمع لهن إذا عرف أن والدتهن تعمل راقصة.

- لماذا لم تتركي الرقص وتختاري بناتك؟
- لم يكن الرقص أغلى من بناتي،ولو بقيت معهن لم أكن لأنفعهن أيضاً، أم محطمة مقهورة مهمومة منهارةومضغوطة، عصبية ودائمة الصراخ، أتذكر أنني لم أكن الأم كما يجب أن تكون أماً أيضاً، لقد سلب أمومتي دور الأب الذي كنت أعتنقه في غياب الأب.
- لا عليكِ يا سيدتي، لا تحمّلي نفسك فوق طاقتها، المهم هو أنك عدت لهن أخيراً، بالنسبة لـ"سهيلة"فالخطة كالتالي: ستضعين هذا الخطاب وسط دفتر "سهيلة"، سنحتاج لمساعدة الأسرة كلها، من الممكن أن تأخذها واحدة من أخواتها وتتريض في الحديقة، في هذا الوقت تفتحين الدفتر تصورين بهاتفك ما كتبته مؤخراً، وترسلينه لي، ثم تضعين هذا الخطاب.
- سأفعل، ومكافأتك غالية عندي إذا استطعنا إخراج"سهيلة" من عالمها الافتراضي.

- سوف أجعل اكتئابها يتلاشى بالتدريج، حين تشعر بأن هنالك بشراًفي العالم يعانون، وأنها ليست محور الحياة لا هي ولا اكتئابها، وحين تشعر بالرضاوقتها فقطستخرج من ذاتها.
- اتفقنا.

تأتي الممرضتان المكلفتان بعنايتها فتعقب:

- ها هما ناكر ونكير أتيا!

تقف على رأسها الممرضتان المسئولتان عنها:

- ألم نقل لك ممنوع خروجك من الحجرة إلا بإذن من الطبيب.
- نسيت يا آنستيّ، وسوف أذهب بنفسي لحجرتي دون أن تسحباني كمخبرين.

-12-

حاول إعطاءها كل الأسباب لتصرفها، لكنه لم يجد، يطالع هاتفه من فينة لأخرى لعله يجد منها تبريراً، أو اعتذاراً، حرف واحد، حتى تعتذر له أنها أرسلته بالخطأ، رنةمن هاتفها واحدة تعادل نبض قلبه، إنه في العادة غير عاطفي، ولم تكن لفتاة أن تهزه إلى حد هذا العمق، لكن "سيرين" فعلت، هي لا تصلح لشيء في الوجود إلا للحب، أن تحبها وكفى ثم لا تكتفي، أن تمضي بصحبتها العمر، فتاة مسلية، وقريبة وجريئة، مشاعرها كالماء بداخل الكوب واضحة.

لاحظت الأم تغير حال ابنها.

- خذ يا "محمد"، مد يدك وكل واشرب واهنأ.
- ليس عندي رغبة يا أمي.
- وكيف لا تكون مهموماً وأنت تعود إلى بلدك بعد سنين، وقد فاتك الكثير، من تركته صغيراً كبر، ومن تركته كبيراًهرم، ومن تركته هرماً مات.
- هذا لا يهم.. المهم هو المستقبل.

تبكي الأم..

- وما الداعي يا أمي لهذا البكاء الآن؟

- ليس هنالك داعٍ يا حبيبي سوى أنني تذكرت سني غيابك وحسرتي على فراقك.
- وها نحن التقينا، فلا تجزعي يا أمي.

تنهد ونظر نظرة أخيرة لهاتفه قبيل أن تضيع الشبكة في الطريق،ولكن دون جدوى،إنهلا يزالالفراغ، فصندوق رسائله فارغ، توقف القطار في أحد المحطات، فتسابق الصبية المتسولون والباعة الجائلون، ألقى ببعض النقود في يد أحد الصبية، كانت تلك هي العادة المتعلق بها منذ الصغر إذا ما غضب أو جثم فوق صدره حزن أن يطلب الصفح والغفران من الله عن طريق الصدقات؛ فقد تفتح له السماء أبوابها حينما يتمنى أمنية خالصة، ارتفع برأسه إلى السماء تحدث عيناه القدير بما اختلج في صدره.

مسد براحة يده فوق شعره الطويل إلى كتفه، وفكر أنه لن يكون مقبولاًإذا ما دخل بلدته وقابل الناس بشعره الطويل، كما رفض أن يدخلها بسيارته الفارهة، فلا يشعر أهله بعلوّه ودنوّهم، ثم إنه لا يريد الرجوع غريباً، فأشترى مقصاً وفي حركة سريعة لوي شعره وجزه مرة واحدة متجاهلاً نظرات أمه وأخته وهما تحدقان فيه، ثم عقد ذراعيه فوق صدره مستنداً برأسه على نافذة القطار يراقب أعمدة النور المضاءة في وضح النهار يلاحق بعضها البعض.

على الجانب الآخر،"سيرين" وقد تعافت بدنياً وانضبط ضغطها، فكتب لها تقرير خروج، دفعت والدتها حساب حجزها، ثم طلبت من ابنتيها الاجتماع في حجرة "سهيلة"، بعد أن استطاعت التسلل من الممرضتين المشرفتين على تمريضها، بادعائها أنها لم تنم الليلة السابقة، وسوف تخلد في نوم عميق ربما لثلاث ساعات متواصلة، جلست الأم وحولها بناتها الثلاثة.

- في الحقيقة،، أنا لست ممتنة لحالكن كثلاث بنات وقد أمسيتن عازبات، نكذب على أنفسنا نحن بنات حواء بادعاء أننا نستطيع العيش دون آدم، والواقع هو أن العزوبية لا تورثنا سوى مزيد من الوحشة والسواد، نفكر في الكلمات التي تمنحنا القوة والاستعارات والاقتباسات وقصص البائسات أمثالنا نهوّن بها على أنفسنا، إنما بذلك نكذب على أنفسنا، تضع الواحدة منا رأسها بين يديها في الوقت الذي من المفترض أن تضعها فوق صدر إنسان حقيقي يشعر بالقلق المتجول في عقلها، إن الوحدة قاسية ومؤذية، ولا أريد لواحدة منكن نفس مصيري، صدقوني فالحياة ليست بخيلة فمازال فيها قلوب لم تزل على اتساعها، فلم تتصحر الغابات، ولم ينحسر الموج للأبد بلا رجعة، ولم تضنّ السماء بمطرها في كل موسم، لتيئسن أنتن من وجود حب خالص.

عقبت "سندس":

- سأرجع لـ"طارق"، وأعترف له بالحقيقة، وأطلب منه الصفح.
- جيد يا "سندس"، وأما عن "سيرين" و"سهيلة" فليس هذا وقتهما، نحلّ مشكلة الكبيرة أولاً، على الأقل هكذا هو العرف.
- أريد الخروج من المشفى اليوم.

قالتها "سهيلة" وهي مميلة رأسها غير مكترثة لا بكلام الأم ولا نية "سندس"، هزّت الأم رأسها ولسان حالها يقول: لا أمل فيك يا "سهيلة"، ستخرجين الآنللتريض في الحديقة مع "سيرين".

- أريد الخروج.
- ستخرجين للحديقة.
- بل إلى المنزل.
- لن تذهبي لحجرتك اللعينة.
- بل سأفعل.

مع علو نبرة "سهيلة" في الحديث، خفضت "نادية" نبرتها، وفكّرت أن العناد لن يجيء بطائل معها.

- لنتفق، تخرجين لوقت يسير إلى الحديقة، بينما أرتب أنا أوراق خروجك.
- اتفقنا.

- ألم يرَ أحد والدكنّ اليوم.
- لا يا أمي،إنه منذ أمس مختفٍ.
- ترى أين ذهب هذا الشخص، الحمير امتلكت هواتف محمولة، ولا يزال هو في عصره الحجري، لكنه سيعود،أين سيذهب هل لديه أسرة أخرى؟

نظرت "سيرين" و"سندس" لبعضهما نظرة خبيثة، بينما ظلت "سهيلة" على تعابير ازدرائها من الموقف كله.

- من ستأتي معي للحديقة تلحق بي.

ثم خرجت من الحجرة بعدإلقائها نفس النظرة المناسبة لتعابير وجهها وإحساسها. خرجت الأختانتلحقان بسهيلة، هنا انتهزت "نادية" الفرصة، ووضعت الخطاب بداخل الدفتر، وصوّرت آخر ما كتبته الابنة. ثم اتجهت إلى الاستقبال لإنهاء أوراق الخروج لجميعهن، فما دامت "سهيلة" مصممة فإنها وإن لم ينفذ طلبها فقد تقوم بفعل متهور آخر قد لا تُحمد عقباه.

أثناء إتمامها للأوراق حضر الوالد، فعاجلته "نادية":

- أين كنت؟

ابتسم متذكراً الأيام الخوالي:

- منذ غادرت المنزل، ولم يسألني أحد هذا السؤال.

- ساعدني في إتمام الأوراق.
- هل ستذهبين مرة أخرى؟
- هذه المرة لا، سوف أقيم مع بناتي.
- وأنا أين أذهب؟
- ستقيم معنا في نفس المنزل.
- ستتزوجينني؟
- من يتزوج من يا "فؤاد"؟

صمتت متململة، فأتبع حديثه بالصمت، ومع ذلك كان لدى "فؤاد" حدس بأنهلايزال لديه فرصة ثانية مع "نادية"؛ لأن الزواج في تفكيره كقطعة قماش من الممكن رتقها، وكانت هي على عكسه لديها يقين آخر بأن الزواج كالزجاج أي شرخ لا ينفع فيه الإصلاح.

-13-

رجع الأفراد الخمسة للمنزل، شعور غريب انتابها، ولكن لم يكن شعوراً بالغربة، سنوات مرّت، هي كبرت والبنات كبرن، ولم يكبر المنزل، تغيرت، ولم يتغير فيه شيء، حتى المفارش التي صنعتها يوماً بيدها مازالت في مكانها، كأنها تنتظرها، ومازالت الجدران في عنفوانها، كلما اصطدمت بركن ضربتها الذاكرة بالحنين، فأدارت وجهها، ثم سألت نفسها: ألا يزال هنالك متسع من الوقت ومزيد من العمر لإعادة الزمان، ولكن الناس تعود والشواهد تظل،إلا الزمان فالزمان لا يعود.

وقفت "نادية" في المنتصف بينهم، وقالت:

- من اليوم أنا موجودة.
- سأذهب لحجرتي.

قالتها "سهيلة"، وانزوت في حجرتها، واستأذنت "سندس"إنها سوف تذهب لـ"طارق"، أما "سيرين" فقد ابتسمت:

- أهلاً بك يا أمي في عالمنا، أستأذن منك فأنا ذاهبة لأستريح.

وظلت "نادية" واقفة بمفردها بعدما تركها "فؤاد" هو أيضاً يبحث عن شيء يأكله في المطبخ.

ظلت "سندس" واقفة أمام خزانتها، تريد التأنق، إن المرأة إذا أرادت مصالحة حبيبها تأنقت بكل ما فيها، بملابسها، بكلامها، بنظراتها

ولفتاتها، ولما شعرت بأنها في كامل زينتها، قررت الرجوع له. مرّت بمطعم واشترت طعاماً ثم بحلواني اختارت من عنده نوع الحلويات الذي يحبه، اشترت له هدية، ربطة عنق، ووقفت أمام الباب تنتظره بالحب والتوق وكل معاني التسامح في الدنيا.. فتح الباب، ابتسمت أمامه تطلب من نفسها عدم التردد والآن..

- أنت طالق يا "سندس".. أنا هذه المرة أحببت عن حق، وغير قادر على الجمع بين زوجة وحبيبة؛ لأنني بصراحة لست بخائن.

أصابتها الصدمة بمقتل في وعيها وكل حواسها، فأطلقت ضحكة خافتة بلهاء، إنها وصلت إلى المرحلة التي لم تكن تتوقعها، في الوقت الذيوصلت فيها توقعاتها لسقف السماء في أن ترجع له، وسألت نفسها وهي تنظر إلى السقف، نرى من سكب دلو الماء البارد فوق رأسها، برودة أطفأت مشاعر الحماس والتحفز، ثم التفتت حولها كأنها تشاهد فيلماً خيالياً بطلته شخصية أخرى غيرها، لقد طلّقها؛ لأنه يحبها، أي عقل امرأة هذا الذي قد يتحمل، فلقد دنت منه، ثم ابتعد مجدداً ليختفي ويتلاشى عن متناول يدها.

رجعت بطفليها إلى المنزل، وفي الطريق ألقت بالمرأة التي أحبها زوجها في النيل، قتلتها، محتها للأبد، أمسكت بالهاتف وبكل عزمها هوت به في الماء.

تكوّرت في حضن أمها من جديد، تبكي كرضيعة، علمت الأم بالمصاب دون أن تبوح الابنة، حاولت دعمها بكلمات:

- أنت زوجة جيدة وأم رائعة، وكذلك أخت وابنة طيبة.

ردت الابنة وهي تشهق:

- لم أعد زوجة.

رفعت الأم رأس "سندس" بيدها ناظرة بداخل عيونها:

- ولكنك مازلت حبيبته، وهذا هو الأهم.

خرجت الابنة من حضن أمها:

- لكنني ما عدت أريده، كرامتي ترفضه.

هنا ضغطت الأم على كتفي ابنتها بقوة تكاد أصابعها تنغرس في لحمها:

- لا تكوني سلبية، لا تتركي مكانك، وتخسري مرادك بحجة الكرامة، كرامتك هي المحافظة على حبك وزوجك، ولن تكون أبداً الخسارة، لتغيري من نفسك التي كلما شعرت برفض انسحبت، بل ابقي وهاجمي ودافعي حتى تحتلي مكانك.

هزت "سندس" رأسها نافية أن في استطاعتها فعل ذلك، ثم ذهبت إلى حجرتها وأغلقت الباب.

على الغداء جلست الأسرة مكتملة برغم رفض "سهيلة" وامتناع "سندس"، إنها المرة الأولى منذ سنوات التي تعد فيها طعاماً بنفسها، لا

بل هي المرة الأولى التي تتوسط فيها طاولة طعام تتوسط فيها بناتها، منذ زمن، لم تقتسم رغيفاً معهن، ولا تذوقت طعاماً ليس ممرراً بطعم الفراق. ولتكسر الصمت قررت "نادية" كسر رتابة الجلسة بأي حديث:

- أشعر كأنها ستمطر اليوم، من فيكن يشاركني هذا الشعور؟

علقت "سيرين":

- كنا نتفق أنا وهو وقت المطر أن نخرج دون مظلات، نركض في الشوارع وقت ما يختبئ الناس، يلفّني بمعطفه، نأكل الآيس كريم، ونجلس وسط برك الماء.

فكرت الأم في أنها اختارت الموضوع الخطأ، فغيّرت مسار الحديث على الفور:

- القرع العسلي هو أنسب وجبة عائلية، أتذكر أن أمي لم تكن تفعل صنيعاً أروع من صينية القرع بالبشاميل.

أبعدت "سندس" الطبق عنها وهي تتذكر قائلة:

- لم يكن طارق يحب القرع، وكنت أنا أحبه،إذا ما اختلفنا أو تخاصمنا طبخته لأغضبه وأرضي نفسي، فيما يبدو أن حياتي كلها ستكون قرعاً عسلياً.

مرة ثانية شعرت "نادية" أنها اختارت الموضوع الخطأ، فآثرت الصمت.

بعد الغذاء غسلت "نادية" الأطباق، ووضعت الغسيل في الغسالة، بينما كانت تعدّ الشاي، دارت على أفراد الأسرة بالصينية فرداً فرداً تناوله كوب الشاي في يده، حتى "سهيلة" التي كانت لا تشرب الشاي إلا إذا أعدته بنفسها استحسنت طعمه وشربته، بعدها جلست أمام التلفاز تتابع مع "فؤاد" مسلسلاًكما الأيام الخوالي.

- اشتاقت إليك الأمكنة يا "نادية".
- الأمكنة فقط يا "فؤاد".
- أقصد أمكنتي يا أم البنات. عقلي وقلبي وعيوني وصوتي وسمعي وكلي، إن ذكراك كانت كالمفكرة التي أحملها دائماً.
- لماذا لم تتزوج يا "فؤاد"؟
- كسّلت.

ضحكت "نادية" معقبة:

- حتى في هذا يا فؤاد؟إنك كتلة من الكسل واللامبالاة.. لنتحدث في أمور البنات، أنت والدهم وليس من المفترض أن يخبأ عنك سر.

- أتظنين أنني لا أعرف شيئاً عن بناتي؟ إنني أعرف عنهن ما قد لا يعرفه أب عن بناته، ولكنني لم أكن أعرف كيف أتصرف، فأركن إلى السكوت وأقول الله يغير الحال.
- هكذا يا "فؤاد"؟ هكذا بكل بساطة؟ تشاهد بناتك يغرقن ولا تمد لهن يدك، لماذا لم تطلب مني التدخل؟
- وما أدراني أنك كنت ستقدرين؟

لم تستطع "نادية" تحمل برودة أعصاب "فؤاد" وهي مستشاطة من كلامه، فذهبت إلى الشرفة، وأغلقت الباب كعادتها القديمة كلما حنقت منه واختنقت، بدأ ألم الظهر يباغتها لدرجة أن ساقها تيبست وكأنها ماتت منفصلة عن جسدها، فكرت في أنه قد أصبح لا محال من العملية وأنه لا وقت، عليها حل مشاكل بناتها قبل الخضوع للعملية.

إنه يشعر أنها هي، هي قدره، حب الصدفة الذي يشبه أن تكون سائراً في الوحل، وأنت تلعن من حرضك على النزول في هذا اليوم المرعد والعقيم، تخرج من الوحل إلى الرصيف فتسقط على وجهك، فيخرج صوتك بكل أنواع السباب، على العمل والظروف والحياة، والبشر اجمعين، أصوات كلاكسات السيارات تدفعك للجنون وهي تختلط

معأصوات بشر يلعنون هم الآخرون، ويعمل عقلك بشكل غريب، يطرق على رأسك كمنقار خشب، لقد تركت أنبوبة الغاز مفتوحة وسوف يحترق البيت، لقد تركت الصنبور مفتوحاً وسيغرق البيت، لقد نسيت غلق الباب وسيدخل سارق لسرقتك، فتركض تودّ الهروب من أفكارك، ومن حياتك ومن الشوارع والوحل الدبق الذي زادت كثافته وكميته، أصبح يغطيك إلى ركبتيك، ثم إلى صدرك ورقبتك وعينيك حتى يغطيك كلك، وتغطس فيه إلى الأسفل مغمض العينين، لكن باقي حواسك تعمل، تدفع نفسك للخارج دفعاً حتى تقف على قدميك من جديد، وبينما تزيح الوحل عنك محاولاً تنظيف نفسك، ترتطم هيبك، تسقط من رقبتها قلادتها، لحظات ويكون الحب نظفك، ونظّف الشوارع حولك، وأعاد تنظيم المرور، وأصلح الأرصفة المتكسرة، وأن الحياة التي كنت تلعنها منذ قليل أصبحت الأجمل في المطلق، ثم يهدأ عقلك.. إنها "سهيلة".

اتصل "طه"بـ"نادية".

- هل خرجتم من المشفى؟
- نعم.. "سهيلة" صمّمت.
- لقد أخذت إجازة دون مرتب من عملي، ففصلوني للأبد.
- لماذا يا "طه"؟ أحزنتني،إن أردت عملاً آخر توسطت لك.

- لا عليك، أردت التفرغ لحل مشكلة الآنسة "سهيلة"، هكذا أحسن، لقد كنت مرغماً على هذا العمل، وسيكون الفصل دافعاً للتغيير.
- إلى أين وصلت في مراحل التعليم يا "طه"؟
- أنا خريج المعهد العالي للموسيقى قسم عود، أنهيت الماجستير وأعدّ الدكتوراه.
- معقول؟ ولكن لمَ لا؟ أخلاقك وذوقك حدثوا عنك يا ابني من قبل أن تتفوه عن نفسك.
- أشكرك سيدتي، أما عن الخطة فهيكالتالي...

ثم خطط معها كيف سيسير الأمر، في البدايةشعرت "نادية" بالخوف،فهزّتها موجة من الشك، إنها ستسلّم ابنتها للمجهول واللامعقول، ولكنها أودعت خوفها عند الله، ونزلت سريعاًإلى الشارع، تسير في الشوارع القديمة التي خلّفتها منذ نحو عقدين من الزمن، الأسواق الشعبية، بائع العرقسوس وبائعة الجرجير، وثلاث بنات يركضن على غزل البنات وهي تركض خلفهن، تضيع واحدة منهن، تمسك بيد الاثنتين الباقيتين، وتهتف باسم ابنتها التائهة وسط البشر، يدفعها الناس وتكاد تصدمها سيارة، يخفق قلبها سريعاً وتتلوى أمعاؤها مثلما كان يحدث قديماً يحدث معها الآن، تنهار وتنوح وتسقط على الأرض، ثم تأتي الكف الصغيرة ترفعها، إنها هي

"سهيلة".وهي لم تته،وقد عادت إليها، وكذلك ستعود إليها مرة أخرى ولن تتأذى.

لم تشعر "نادية" بنفسها إلا وهي تقف أمام باب شقة ابنتها "سندس"، ضغطت مطولاً على الجرس إلى أن فتح لها "طارق".

- من؟
- والدة "سندس".
- "سندس"!!
- نعم.
- تفضلي.. أعتذر عن الفوضى، تستطيعين اعتباره بيت رجل عازب.
- لا عليك.

جلست "نادية"ساكنة لمدة خمس دقائق ترتب الكلام بداخل عقلها، إنها لا تريد إقناع "طارق" وحسب بالرجوع لـ"سندس"،إنما تريده أن يعرف حقيقة "سندس" من "قمر"، تنحنحت ثم بدأت الحروف تخرج تباعاً من فمها.

- سوف أسألك سؤالاً في البداية: ما قيمة الدنيا إن لم يجد الإنسان فيها سعادته؟
- الصراحة لا قيمة لها.

- وهل يختلف شكل السعادة عندك أم إن المهم هو مضمونها، ولو فرضنا مثلًا أن السعادة الحقيقية التي تشعر بها وترتاح فيها أن اسمها حزنً مثلا هل ستبغضها؛ لأن اسمها لا يطابق معناها؟
- بالطبع لا.
- إجابتك أشعرتني بالارتياح.
- شكراً، لكن الذكي هو من لا يهتم بالأسماء بل بالمعاني.
- وأنت ذكي يا "طارق"، وكذلك ينطبق الأمر على الحب وكل المعاني الإنسانية كالمودة والصداقة والأخوة وغيرها.
- بالتأكيد أنا معك في ذلك.
- لذا أطلب منك أن تتمسك بحياتك الحقيقية، والرجوع لـ"قمر"؛ لأن "قمر" هي "سندس".
- ماذا؟
- ما أقوله لك، إنها وعلى قدر عقلها تصرفت ببساطة؛ لأنها لا تريد أن تخسرك، ضحّت بنفسها كـ"سندس" واختلقت من الوهم إنساناً آخر.
- ذلك خداع يا حماتي.
- جيد أنك نعتني بحماتك، لكن أيا كان فـ"سندس" هي "قمر"، في القصة ما سيريح بالك أن "قمر"ليست بالبعيدة إنها قريبة، قريبة

منك جداً، وهي وللحظ السعيد والدة طفليك.. السؤال هل أنت بالفعل تحب هذه الشخصية، وتجد سعادتك معها.

- نعم بالتأكيد.
- إذاً لا وقت للجدل، وتعال لترجع زوجتك وحبيبتك.

تعلقت عيناه إثر صوت صرير الباب المفتوح، فوقف"فؤاد" مشدوهاً يستقبل القادم، ولما لاح طرفها وطواه ظلها هدأ قلبه، استقبل "فؤاد" "نادية" وهو يمدّ لها يده تحمل هاتفاً نقالاً.

- لقد اشتريت هذا الهاتف خصيصاً للاطمئنان عليك حين تخرجين.
- إذاً أنت من فصلت شحن هاتفي.
- لا لست أنا، أنا كنت هنا بالمنزل، وأما هاتفك فقد كان معك.
- أنت طيب يا "فؤاد"، أنا أقصد أن اتصالاتك المستمرة المتلاحقة أفرغت شحن بطاريتي، فأنا في الغالب لا أجيب على أي رقم غريب، فهذه الأرقام إما أن تكون عشوائية أو متطفلة.
- اعذريني، فقد خفت أن تكوني رحلت مرة أخرى.
- أصحيح أنك قلقت يا "فؤاد"؟
- لقد عدت طفلاً منذ تركتِني يا "نادية"، من كان سواك يهتم بي؟ برغم أنني قليلاً كنت أهتم بك، ولكنك الوحيدة ومازلت الوحيدة يا "نادية".

في غمرة المشاعر التي غُمِرت سنين ثم طفت كانت "نادية" قد نسيت أنها أحضرت معها "طارق" للمنزل ليصالح "سندس"، "طارق" وطول الطريق كان يطلب من "نادية"إعادة الحكايةًوهويتفرس في وجهها غير مصدّق، فلما تعبت من تكرار كلامها قالت له:

- كفى يا "طارق" ستجن.

وبطريقة شاقة تشبه طريقة تكلم رجل عجوز أنهكه المرض عقب:

- لقد خدعتني وهي التي خانتني، لماذا خبّأت عني الحقيقة وارتضت تعذيبي وتحييري؟

فأجابته "نادية":

- لأنك كنت قد أغلقت عينيك عنها، وسددت أذنيك، وما كنت لتقبلها منذ البداية كما تقبلت "قمر"، إنه عقلك الذي صوّر لك زوجتك بصورة لا يقبل معها أي تعديل.

هنا كسر القلم في يد "طارق"..إنها الحقيقة وعلام ينكر.

والآن وقد تواجهها وجهاً لوجه وعين بعين، "طارق" و"سندس".

- لقد عرفت الحقيقة يا "سندس" يا "قمر".
- لاتذكر اسم هذه الساقطة أمامي.
- أوَليست هي أنتِ؟
- نعم أنا حين كنت ساقطة، لكنني تبت عنك.

- "سندس" لننسَ ما فات ونبدأ من جديد.
- نسيت وانتهينا يا "طارق".
- إن ما كان بيننا لم يكن خدعة، وقلبي وقلبك تلاقيا دون تدخّل منا، لا يهم إن كان تلاقيهما تأخّر، لكنهما تلاقيا.
- لا تذكر سيرة قلبي، فإنني أكرهك يا "طارق".
- نحن لا نستطيع الفراق ولو قررنا، لقد تواعدت مشاعرنا، أنا أحبك وأنت تحبينني، ولو قلت ألف أكرهك.

ضحكت "سندس" ساخرة:

- يالهذا المجهود المبذول في الهواء،لقد عدنا كما نحن، ما أظن أننا سنستطيع أن نستمر، وأنا أرى "قمر" في عينيك.
- لا تخجلي من عاطفتك التي تفضحها نظراتك، ولا تجعلي كبرياءك المظلم يبعدك، فعيناي لا تريان سواك، وأذناي لا تسمعان سواك،وهذه الكلمات التي كنت ترسلينها لقد كتبتها بيدك، تعالي من جديد كما كنا بالسابق نتحدث بالساعات دون كلل، منذ عشقتك أصبحت مريضاً بك وقد اعتدتك، ومنذ رحيلك أصبحت مجنوناً بك، إن قلبي هو من يريدك، وهو الذي يقول لك تعالي أنا بحاجة إليك، أنسيت تلك الليالي التي كنا قبل النوم نحدث فيها بعضنا ونلتقي بعدها في الحلم؟ لقد كنت وبعدما تغلقين الخط أنظر في المحادثة

وأعيد قراءتها حتى أنام ويقع الهاتف من يدي، تعالي كما كنا بالسابق نحب بعضنا هكذا، ونشتاق دائماً، فأنا أعلم أنك أنت تريدينني أيضاً، وتنتظرينني كما أنتظرك، وأن حنينك مسار رغماً عنك إليّ.

- لا فائدة يا "طارق".. لن أعود.

ثم تركته وحيداً في الغرفة، كانت "نادية"جالسة في الصالة تنتظر خروج "سندس" و"طارق" متشابكي الأيدي، ولكنها علمتمن تصرف "سندس"أن ابنتها رفضت "طارق".بعدهاخرج "طارق" دون كلمة واحدة مغلقاً الباب بنفسه.

-14-

استيقظت "سهيلة"، وبينما تتثاءب وتمد ذراعيها، اصطدم ذراعها بهيكل غريب، ثبتت في مكانها لثوانٍ تفكر: "أأكون قتلت أحداً أمس دون أن أتذكر؟!"، أغمضت عينيها وراحت تتحسس الجثة الراقدة إلى جوارها، إنها بالفعل جثة إنسان.. وعلى ما يبدو رجل، فكرت، ترى من قتلت أمس؟ هل قتلت والدها؟ وراحت تتحسس بطن الرجل المسجّيإلى جوارها، لكن والدها بكرش، إذاً ليس هو، إذا قتلت شخصاً غريباً، فكيف إذاً ستدخله إلى المنزل دون أن يلاحظها أحد، فكرت إذا كانت خرجت من الأساس من المنزل، لا لم يحدث.

تمالكت "سهيلة" أعصابها، وقررت مواجهة قتيلها، أدخلت برئتيها أكبر كم من الهواء، وزفرته مرة واحدة، كررتها ثلاث مرات، ثم رويدا رويدا حركت رقبتها باتجاه جانبها الأيمن، ثم وفجأة فتحت عينيها، وصرخت: "من أنت؟" وضع يده فوق فمها.

- من أنت؟ وكيف دخلت؟ أنت لص بالتأكيد، خذ ما تريد، خذ وسأتركك ترحل بسلام.
- كفى،أتضعين مسجلاً في فمك، هل هذه هيئة لص بربك؟إنني حتى لا أرتدي بذلة مخططة؟
- مغتصب إذاً.

- نعم مغتصب، جئت لأغتصب ضحيتي في منزلها، ونمت كحمل وديع إلى جوارها إلى حين تستيقظ لأسألها إن كانت تريد أن تغتصب أم لا!
- هل أنت تائه إذاً؟
- تائه -رفع حاجبيه متعجباً-إنها طريقة جديدة تلك في التوهان، أن يكون الشخص نائماً فيتوه في أحلامه، ويستيقظ ليجد نفسه في منزل غير منزله.
- لقد ضقت ذرعاً منك، فمن أنت؟
- أنا اكتئابك.

نهضت من فراشها، وأمسكته من يداه، توقفه أمامها، تدور حوله.

- أنا موهومة، صحيح؟
- لا لستِ موهومة.
- كيف عرفت طريقيإذاً؟
- هنالك في المدى النجمي البعيد، حيث تتناهى الألحان وصلني صوتك يطلب مني: "ألا تجسدت بشراً يا اكتئابي؟".. سيدتي دعيني أضع معزفي تحت قدميك يا أول من أحبّني، فلقد بحثت عنك العمر منذ أن خلق الحزن، ألم يصلك خطابي الذي وصفت لك فيه كيف وصلت؟
- نعم وصل، هذا الذي أرسلته عن طريق الحمائم في المدى المتلاشي.

- نعم، وأضيف لك أنني مررت بالدروب الخبيئة.
- الدروب الخبيئة تلك التي هي بين عرائش الـ..
- عرائش العنب البناتي، نعم، المرة التالية سأحضر لك ثلاثة كيلو ما دمت قد سألت!
- لا ليس عرائش العنب البناتي، بل عرائش الظلال الشاحبة في فناء دار الفناء المؤدي إلى الدروب الخبيئة، وهل يا ترى يا اكتئابي مررت بخط الألم؟
- لا أنا أخذت خط صلاح سالم، مختصر وأسرع.
- حدثني أيضاً عن نفسك يا اكتئابي.
- ليس عندي تعريف لنفسي سوى ما عرفتني أنت به في رسائلك، أنا آسف على جعلك حزينة ومتألمة دائماً.
- أنت يا اكتئابي لا تشعر بقيمتك في حياتي، أنت عظيم ومهم كالهاتف والسيارة وخطوط الطيران وكل اختراع أفاد الانسان، ومهمّ كالماء والهواء، حياتي بدونك أو معك هي هي،أنت لم تجعلها أسوأ ولم تزدها خراباً.
- أنا مجرد اكتئاب ولست "قيس".
- ولكنني المجنونة التي أحبت حزنها، أنت مرضي الذي ليس له علاج، ماذا كنت سأفعل سوى أن أتعايش معك وأحبك.

- لقد جئتك أنت من دونهم جميعاً؛ لأنك الوحيدة التي أحبتني على علتي، إنهم إما يقتلون أنفسهم أو يكافحونني بالعلاج والصمود، لكنك وحدك لم تقولي في وجهي لا.
- لكني، وإن كنت أحبك فلست جديرة بحبك، فأنا أشبه ثمرة عطبت فوق غصنها.
- لكنك هذه الثمرة تعجبني، وهي بالنسبة لي شهية رغم العطب.
- أنا سأرجع للنوم لأستيقظ مرة أخرى، وأعرف أن هذا حقيقة أو حلم.
- نامي وأنا ملاكك الحارس.

خرج "طه" من غرفة "سهيلة" على مهل وبحذر، ثم أغلق الباب، تلقفه الجميع الأم والأب والأخوات وفي نفس واحد.

- هل صدّقت "سهيلة" أنك اكتئابهاوشربت الخدعة؟
- اطمئنكم فابنتكم مجنونة مجنونة بلا جدال، وكل أبراج عقلها أبراج حمام طائرة، فطبيعي أن تصدق.

يزمجر فيه الأب:

- أتقصد أن ابنتنا مجنونة؟
- لا يا عمي، ليس كما في عقلك، إنه جنونٌ محمودٌ، جنون الشعراء الذين يعيشون في مجرة أخرى، لا تقلق فأنا عازف وأعاني من جنون مشابه.

- لو مسست ابنتي بشرّ سأقتلك.
- وهل ستقتلها لو مسّتني هي بشرّ، خف عليّ ولا تخف عليها، عموماً لا تقلق،بل سأمسّها بكل خير، ثم لماذا نتحدث بجوار حجرتها؟ ستضيعون بقلقكم كل التخطيط.

سحبوا "طه"إلى غرفة الضيوف، وجلسوا حوله جميعاً متحمسين، على يمينه "نادية" تحملق فيه، وعن شماله فؤاد وقد عقد حاجبيه حتى تشابكا، وأما الأختان فقد وقفت كل واحدة أمامه متجاورتين.

- لا تقلقوا، ابنتكم "سهيلة" مشكلتها أنها صُدِمت من الواقع فرحلت بروحها إلى الخيال، فقدت الثقة في البشر، فأحبت مرضها، وتعايشت معه، وأغلقت على نفسها معه الأبواب، إنها تعيش كغريبة في عالم موازٍ.
- لماذا قطعت إصبع قدمها إذاً؟

سألته "سيرين"..

- لتشعر بالألم، الألم هو الشيء الوحيد الذي يربطها بالواقع، وهي حين يحدث بداخلها الصراع وتدخل في دوامات الإحباط من فشلها في التأقلم مع الواقع مع أهلها وفي عملها ودراستها، فإنها تؤذي نفسها، لتشعر بالألم، فتحس بالارتياح أنها مازالت منتمية لعالم الأحياء.
- وما العلاج؟

سألت "نادية".

- العلاج هو الخروج من الذات والشعور بألم الأخرين، إعادة نفسها من الأفق الذي حلقت فيه بعيداً، أن تقطع عهدها مع الوحدة، ذلك العهد الأحمق الذي ظنت أنه يحميها من عيون الأغراب بعد فشل في زواج كان فاشلاً منذ اتخاذ قراره، فتاة ضائعة ضعيفة، مهزوزة تود الثبات، لكن الحاصل أنها سقطت في مخالب الوحش الذي فتح لها قفصه وجلس ساكناً، لو أن واحدة غيرها وجدت من يحميها ما كانت لتدخل ذلك القفص، طفلة راحت تلهو، بينما الكبار يصفقون لها مشيرين، انظروا لهذه الفتاة الشجاعة القوية التي لا تهاب الوحوش، وما أن دخلت حتى أغلق القفص، ومن ثم أدركت الحقيقة، فقد مارس الوحش العجوز عليها جميع أنواع العنف الذي أراد أن يثبت به لنفسه أنه لا يزال في عنفوانه مأخوذاً بضعفها، ولما انتهى منها فتح لها باب القفص، لتدخل بثقة إلى قفص آخر، قفص نفسها الآمن في نظرها، وتغلق الأقفال بيدها، غير واثقة وخائفة، معدومة القرار، مصابة باضطراب هوية، المرض الذي تولّده الهزائم المتتاليات.. سأذهب أنا الآن وسأعود غداً، ولا تقلق يا عمي، ولو أن لك الحق في قلقك.

تبعت "نادية""طه" توصلهإلى منزله، وكانت في هذا لها غرض أن تعرف عنوانه.

- طه.

- نعم يا سيدة نادية.

اسمح لي بأن أوصلك لمنزلك.

- ليس لدي مانع بالطبع، هذا كرم منك.

في الطريق من الحلمية للمقطم، تحدثا عن الموسيقى والشعر، عن موزارت وبيتهوفن وعمر خيرت، فهو موسيقيّ وسهيلة تكتب الشعر وربما ورثت الهواية عن والدتها التي كتبت كثيرا من الأغاني لمطربين شباب سواء كانوا يعملون عندها في الملهى أو آخرون، وتناقشا عن العلاقة التي قد تتولد بين الشعر والموسيقى، وتحدثا عن الدينة الفاضلة يوتيوبيا الديستوبيا ، ظلا يجدفان في بحر الفلسفة والفنون حتى وصلا، المكان بعيد ونائي وفقير قريب من المقابر. فتعجبت نادية.

- لماذا هي الدنيا غير عادلة، يعيش عند أطرافها الموهوبون والطيبون وأغنياء النفس، ويأكل من لبها المهابيل والطماعين والتافهين؟

- لأنك قلت "غير عادلة".

- صحيح.. قبل أن أرحل طمئني هل بالفعل ستعالج ابنتي؟

-إنني أصنع من الموسيقى شعراً، و"سهيلة" تصنع من الشعر موسيقى، وكل من الشعر والموسيقى يصنعان الخيال، والخيال شفاء لهؤلاء المرضى بالواقع، إن الفن قادر على شفائنا.

- إن الأمر يشبه بالارتقاء، حتى يعم الجمال فيزيح القبح عن النفوس.

- تتحدثين وكأنك.. آسف لا أقصد إنما أنا...

- أتحدث وكأنني لست راقصة، أعلم ما كنت تريد قوله، ولا داعي للاعتذار، أنا أيضاً أشعر بالموسيقى وأحب الفنون الراقية، وأقرأ الشعر والأدب من قبل ما أكون راقصة ومن قبل أن أكون خادمة ومن بعدهما ومن قبل زواجي أيضاً، لكن نحن الراقصات ننال شهرة واسعة كتافهات وخليعات وغاويات...إلخ. ودعني أطرح عليك سؤال عن الفضيلة والشرف؟ ما الذي يجعلك تقول إن هذه المرأة شريفة وهذه المرأة غير كذلك؟

- أظن السمعة.

- ومن يحدد السمعة؟

- آراء الناس وظاهر المرأة صراحة هما ما يحددان.

- والحقيقة ألا تحدد الشرف من عدمه؟ حين تخلو المرأة إلى نفسها، في غرفة نومها، في عقلها، في تصرفاتها المتعمدة في النظرة وفي نواياها، كنت أرقص وأنا أعلم أنني أرقص أمام أشخاص لم يأتونإلا لتمضية

وقت جيد، وآخرين قذرين لم يأتوا إلا من أجل قذارتهم، حسناً، حينما أمشي في الشارع أعلم أيضاً أنني سأسير وسط أشخاص محترمين وآخرين قذرين، أشخاص يضعون المصاحف في جيوبهم وآخرين يخبئون زجاجات الخمور، فيهم من سينظر لي بنظرة عابرة وآخرون سوف يتفرسون. كم زوجة خائنة أو زانية يضعها المجتمع على قمة الفضيلة؛ وذلك لأنها ذات منصب ونسب وحسب وليست راقصة، أو لأنها متزوجة وليست مطلقة؟ كم فتاة تفرّط في كل سنتيمتر في جسدها ماعدا غشاء بكارتها، وهي أمام الناس على خلق وذات سمعة حسنة وليست راقصة؟ وماذا عن الخاضعات بالقول والمائعات واللائي يمسكن صنانير لاصطياد الرجال؟ وماذا عن التي تحب رجلاً أو لنقل تمثل الحب من أجل مصلحة، واللائي يتلذذن بنظرات الحملقة فيهن والمعاكسات، هن بالطبع شريفات مادمن لسن راقصات، أليس كذلك؟ الستر جميل وأنا أحبه، الاحتشام يجعل المرأة من ضمن الملكات والأميرات؛ لأنه وجب على الملكات أن يكنّ محتشمات، أعلم ذلك، لكنني لم أنظر في يوم لنفسي كملكة، أنا راقصة وأنا معترفة بذلك، ولكن ماذا عن العاهرات اللائي يرفضن وصف أنفسهن بحقيقتهن مختبئات خلف الاحتشام من باب الستر؟ها أنا وطول حياتي، وأنا راقصة أو من قبل أو من بعد، لم

أعامل رجلاً في حياتي إلا بصفة الند للند،أو رجل لرجل،أو معاملة كمعاملتي لأي امرأة دون وضع ذكورته في عقلي، ولاحظ أنني راقصة،لكنني ومع ذلك لم أسلم من وصف امرأة غير شريفة.

- ترفع لك القبعة يا سيدتي،إنه الدرس الذي يجب أن تعلّمه سيدة فاضلة لقريناتها، إن الفضيلة والشرف الداخلي يشبه الجوهرة المختبئة داخل الصخور، صعب الوصول إليها واكتشافها، ليس بالنسبة للمرأة فقط،إنما للرجل أيضاً، فكل ما قلته ينطبق عليه أيضاً، فالفضيلة ليست قاصرة فقط على النساء، وضيفي على شرف الجسد شرف الضمير أيضاً.. توقفي هنا إذاسمحتِ منزلي آخر الشارع والشارع مغلق.. أقول إنه من الأفضل ألا أظهر في حياة "سهيلة"إلا بعد اسبوعين، تراقبين تصرفاتها وكلماتها فوق دفترها.

- لماذا كل هذا التأخير؟

- أولاً أريد دراسة حالتها النفسية، ثانياً أريد ترك مساحة لنفسها مرة أخرى تستوعب فيها ما قد استجدّ في حياتها وتقبله على مهل، نحن لا نعرف ربما تخاف مني، البعد سيعطيها الأمان دون شك في غاية صديقها الجديد الاكتئاب.

- حسناً لنرَ.

-15-

تصوّر "ميشو" أن الرجوع إلى الماضي سوف ينسيه الحاضر بشخوصه ومن ضمنهم "سيرين"، مضى أسبوعان وها هو الصدع يستطيل بطول نفسه كلها، فلا فائدة ولو جرّد نفسه من الذكريات بأكملها، إنها الذكرى تطلّ عليه كقطّ شقي يلاحقه أينما سار يطل عليه من النافذة، يخرج له من الأوعية، يسبقه إلى فراشه ثم يتغطى بغطائه، يجلس على المائدة إلى جواره، ويحجز مكانه وسط أهله وأصدقائه، إنها ذكريات جميلة في حاضرها، ومأساة في الفراق والاغتراب.

لينساها أنكر الحاضر ونازع الماضي وحارب المستقبل، ومازالت هي تفرض سيطرتها على جميع الأزمنة، إنه عزم على اعتزال مهنة توزيع الحشيش، سوف يشتري أرضاً ويبني منزلاً في بلدته الصغيرة، سيرتدي جلباباً ويفلح الأرض ويزرع ويتزوج، نعم اعتزم النية على الزواج، سيخرج من غير العادي إلى العادي، فيتحول إلى غير عادي بالنسبة لنفسه، سيكسر القاعدة التي وضعها لنفسه وسوف يتزوج، وحتى حينما في كسرها أول ما تبادر إلى ذهنه هو أنه لا يناسب هذا التمرد سوى "سيرين".

تخيلها وقد ارتدت زي امرأة صعيدية من زمن آخر أقدم قليلاً ربما أو كثيراً، ترتدي ملابس بسيطة وقد عقدت رأسها بمنديل مطرز بالخرز

جمعت أطرافه على جانب جبهتها، ضحك ويقول لنفسه: "ستكون أحلى فتاة في البر كله"،ثم تخيلها وهي تُطعم الطيور وتجمع البيض، ثم وهي تغسل في النيل شعرها المموج وتضع الكحل في عينيها الغجريتين، تمسح له فراشه ثم تسنده بيدها تقعده، يربت على كتفها، وهي تخلع عنه نعليه وتغسل قدميه المتورمين من الشقاء، تمسد كتفه الذي حمل بالنهار الأثقال، وراح يتصور بطنها، وقد امتدت لشبرين أمامها، تمسك من الألم خصرها تميل على الجانبين في مشيتها، وابتسم مرة أخرى وأسرّ في نفسه: ستنجب لي توأمين ولدين، ثم مرة أخرى توأم آخر، ولن تنجب بنات، وستظل هي وحدها فتاتي المدللة، وظلّ على حاله حتى نسي نفسه، وإذا بقدمه تنزلق ويسقط في الترعة في ضحك من الأطفال يقذفونه بالحجارة الصغيرة، وهو ممازح يتوعدهم بالضرب.

أما عن "سيرين" فقد قررت أن تنسى " ميشو" وتربط حزام الصبر فوق لوعة قلبها، بأن تنشغل بالعمل فيلهيها عن القرع الدائم لأفكارها عنه بداخل العقل والحواس، لتمت أيها الحب مختنقا أسفل ضغوط الحياة، لتدهسك عجلة الأيام وتطحنك رحى الأحداث ، فخرجت إلى الشارع، ان الشارع يغير الفتيات، يلونهن بصفات ذكورية، تنموا لهن شوارب في أعماقهن ويخشوشن، تخلت "سيرين" عن أظفارها

الطويلة وملابسها الغريبة، ولملمت شعرها الكيرلي على شكل ذيل حصان، وانتعلت كوتشي بسيطاً لتعمل في صيدلية، غيّر العمل جوانب ربما ليس العمل وحده الذي فعل ذلك، ولكنها الحرية، شعورها بأنها تحررت من "ميشو"، القيد الذي استعذبت عذابه كسوار أنيق، ان التأقلم على غياب رفيق تشبه أعراضه أعراض انسحاب المخدر، أرق طويل وبكاء يشبه السيل المنحدر من أعلى الهضاب، حكة في القلب تود لو تخرج قلبك فتحكه بأظافرك تهشه نهشا حتى يكف عن الحنين، لذا طلبت العمل في ورديتين عوضاً عن وردية واحدة، نظرتها أصبحت قاسية، وهي تنظر كل يوم في المرآة ثم تبصق على وجهها: "كيف كانت ضعيفة إلى هذا الحد، لجعله يتحكم فيها بهذا القدر الذي ظنت معه أنها لن تعيش من دونه فكان عليها أن تصنع شيئا ينقذها منه.

حدث هذا في يوم كانا يتناولان الطعام في أحد المطاعم، ثم اختلفا فارتفع صوته، وما كان منه إلا أن طلب منها أن تنحني وتلمّع حذاءه بمنديل ليرضى عنها، ففعلت فأندهش.

- كنت لا أقصد أن تفعلي ذلك حقيقة انما كنت أهرج فكيف صدقت أنت.

- أتعلم حينما أشعر في البرد في ليالي الشتاء، كنت أفتح النافذة وأقف في مواجهة الزمهرير، فأشعر أكثر بالبرد حينها أغلق النافذة وأنا متأكدة أن حجرتي دافئة، ولقد فضلت مسح حذائك عن فقدك، انه أقل الشرين ضررا، بل ليس ضررا على الأطلاق في فعلي ذلك.. انت لا تفهم شعوري انني مصابة برهبة الفراق.

وهي لم تكن على قدر خنوعها واستسلامها، كانت في أحيان تهجم على "ميشو" في حالة عصبية، فلا تدع مكاناً في ذراعه إلا وعضّته فيه أو أن تتعلق برقبته، ولأنها قصيرة وهو طويل القامة، فقد كانت تتدلى محاوطة عنقه بساعديها، فيدور هو بها ثم يلقيها، كان يريد حبها فقط، وكانت تريده كله، يريدها محتاجة إليه، وتريد هي الاكتفاء منه، لكنها في النهاية ضحّت بما تريد من أجل ما يريد هو.

في الجانب الآخر

كل يوم يرسل لها "طارق" مرسالاً، لكنها على عنادها، لن تعود، أهملت حياتها كلها، تخرج لعملها تسحب امرأة أخرى تدفعها لإيقاظ الطفلين، ثم تسحبها لتجهيزهما للحضانة، وتسحب نفس المرأة

للعمل، ومن ثم العودة بالطفلين، أصبحت ثقيلة، وربما الهواء هو الذي أصبح أكثر كثافة، تقضي أياماًتنام ليل نهار، وأياماً أخرى لا يزورها النوم، ولم يكن "طارق" بأحسن حالاً منها، ذقنه طالت وشعره مبعثر، عيناه زائغتان، والسواد حفر كهفاً أسفلهما، ينسى أن يأكل لولا تذكير أمعاءه هاتفة بنداء الجوع، يريدها هي الحبيبة قبل الزوجة، نداء فطرته إلى وليفته، حزين تملأه عاطفه البؤس، صوته يدلج في الظلمة باسمها، فيجيئه في الحلم طيفها يحتضن بذراعيه شتاته، يستيقظ على سؤال: ما قيمة الدنيا لرجل دون امرأة تحبه؟ إنه ولو امتلك كنوزها ولم يمتلك فيها حبيبته، كأنما هو فيها فقير معدم.

أما عن "سهيلة" وقد مرّ أسبوعان منذ لقائها باكتئابها وقعت في حيرة، هل كان ذلك حلماً أم حقيقة، لكنه لم يفارقها، وراحت تكتب له كل يوم رسالة حتى وصلت لآخر رسالة، وقررت معاقبته بعدم الكتابة له، لكنها آخر الليل لم تستطع منع نفسها من معاتبته.

اكتئابي العزيز..

يا طويل الهجر من بعد الوصل، ليس عبثاً كان لقاؤنا، فيا صغيري ترى ما الذي حجبك عني؟ يا برعم حياتي ما الذي يحملك على البعد

وأنت ملء القلب والعين؟ هل مللتني أم نسيت؟إن كان نعم فما أصعب السببين؟

أيها الطماع، ماذا تريد فوق كلماتي؟ أيها الأناني أيعجبك حالي إن كنت تقرأني وأنا أعيش فيك حرماني؟ يختلس الليل وجهك مني، وقدجعلت من عقلي دمية تلعب بها الأفكار، تعالَأو أمحُ من عقلي ذكراك.

أم أقول لك: لا تأتِ فلقد زهدتك وأصبحت فيك كالنساك، لا وصلاً أريد ولا عطفاً، لا كلاماًأو سلاماً، إنني قررت أن أسلاك، فلا عشم بيننا ومنذ اللحظة لا عتاب.

سهيلة

بينمايسير تحت مصابيح أعمدة الكهرباء في طريقه لمنزل "سهيلة" كان يتفحص القلادة ينعكس الضوء على الأصفر، فيزيد إشعاعاً تزوغ عنده حدقتا عينيه، يقلّب القلادة بين أصابعه،الجو كان خريفياً عاصفاً مغبراً بالتراب، ولكن لم يكن الحائل بينه وبين الوصول إلى منزلها بسرعة أكبر ولكنها الأفكار،يفكر في أن زواجها لم يكن أقل شذوذاً من زواج طفلة لم تتعدّ السابعة من العمر، استسلام الوالد لدوافع ابنته في هذا الزواج المشين،شاخصاً في ملامحها الباهتة كتغريبة فكر في الوضع إذا ما عرفت الحقيقة، ثم سأل نفسه، هل هو حب أم فضول؟إن كان فضولاً فهو مما لا شك فيه سائر إلى طريق

الحب، أوليس الإعجاب أوله فضول اكتشاف الآخر، ومن ثم يأتي الحب، فالشغف إلى حد الجنون،إنه لا يمتلك علاجها كما أقنع أهلها، كل الحكاية أنه أراد التقرب منها وحسب، معرفة من هي "سهيلة"، الفتاة التي وبدماء باردة قطعت إصبع قدمها، ثم وضعته بجيبها، ونامت هنيئة؟

في المنزل كانت "نادية" ترتدي مريلة المطبخ تغسل الأطباق، يبدأ يومها كأي ربة منزل بالاستيقاظ صباحاً الساعة السابعة، ومع امتداد ساعات النهار كانت تتعامل كأم، تعد الإفطار وتنظم المنزل، ثم تخرج لتشتري متطلبات المنزل، هنالك من أهل الشارع من تذكرها، وهنالك من نسي ملامحها، لكنها كانت حريصة على إنكار نفسها، تعود لتحضّر الغداء، تشرب مع "فؤاد" شاي العصاري، ومن ثم تجلس مع حفيديها،إلى أن يجتمع شمل الأسرة حول مائدة العشاء، كانت تراقب بناتها عن كثب، ف"سندس" تتعذب في صمت لا تشكو ولا تئنّ، و"سيرين"قد بدأت تخلع عنها جلدها، تغيرت، جفّ عودها اللين، راحت بهجتها وأبدلته بجمود ملامح ونظرات قاسية، أما "سهيلة"، فهي في العادة لا تخرج من حجرتها إلا لتناول الطعام، وذلك فرضاً عليها من والدتها أو متابعة الطبيب، دائمة الصمت، لا يُسمع لها على الإطلاق صوت.

رنّ هاتفها، وكان المتصل على الخط الثاني "سمير" مدير أعمالها.

- كيف حالك يا مدام؟
- جيد يا "سمير"، ماذا عنك؟
- بخير، لكن الكازينو يحتاج لك يا سيدتي، مشاكل لا أستطيع صدّها بمفردي، الموظفون والفرق والعمال منقلبون عليّ، إنهم وفي غيابك تحولوا لفئران خرجت من مصايدها، هلا عدت يا سيدتي لتصحيح الوضع.
- "سمير".
- نعم يا مدام.
- اعرض الكازينو للبيع يا "سمير"، أنا ليس عندي لا الوقت ولا الجهد له، الغلبة لبناتي،إنهن في حاجة اليّ تماماً كما الكازينو، ولكني سأختارهن.
- أنا مصدوم يا مدام!إنه صرحك.
- بماذا سينفعني ذلك الصرح إذا خسرت بناتي؟
- أنت عظيمة يا مدام.
- لا، لست عظيمة، إنما أنا مجرد أم، وهذا هو ما يجب أن تكون عليه الأم.

وقف "طه" أمام الشقة، ما لبث يلتقط أنفاسه حتى قفذت القطة على كتفه، تشبثت مخالبها في عنقه ثم قفزت مرة أخرى لتدخل صندوقها بسرعة.

- أوف قطة غريبة وشرسة.

اقترب في حذر من صندوقها فوجد بعضا من القطط الصغيرة جدا حديثة الولادة وقد استكانوا أسفل فراء أمهم، فعرف أن القطة انما ظنت أنه يريد سرقة أبنائها أو أذيتهم فهاجمته.

هاتف طه "نادية" ليطمئنّ على أن الوضع آمن، والتي بدورها طلبت منه البقاء حتى تعطيه إشارة بأن الأمور كلها هادئة.وقد اتفق "طه" وبقية أفراد الأسرة أن يظهر بينهم كأنه مخفي، حتى تقتنع "سهيلة"بأنه بالفعل اكتئابها، والذي لا يشعر به سواها، قد تجسّد لها بالفعل.. و"سهيلة" كانت تؤمن بالخوارق، وتناسخ الأرواح والجنيات، لذا فإن عقلها قد منطق ظهور اكتئابها كعاقل يحاورها وتحاوره، وهي ترسل له الرسائل وهو بدوره يراسلها.

تبادل الجميع ابتسامة ماكرة، ثم وقف "طه" متأهباً للخطوة الأهم، كانت وقتها "سهيلة" بداخل حجرتها تأكل الشوكولاتة وتحتسي القهوة، تجلس على مقعد مكتبها، وقد مدّت ساقيها فوق الطاولة، تفكر في

اللاشيء، غير أن مزاجها كان مستقراً، حتى إنها شاركت أخواتها وبنات خالاتهاجلستهن يتبادلن معاً حديثاً خفيفاً تداخلت فيه بعض النكات والسخرية.

ثم غمرها غضب مفاجئ.. تذكرت كل ما حدث معها حين قطعت إصبعها، كان التوقيت في مثل هذا الوقت، فتحت خزانتها، وأخرجت قطعة ملابس قصت منها شريطاً، والباقي منها فرشته على الأرض، ابتلعت قرص بروفين، ثم أخذت من درج وضعت فيه عدة آلات حادة، مشرطاً طويلاً وحاداً بعد أن عاينت أكثر من واحد، واستقرت عليه، ومن نفس الدرج التقطت سكيناً كهربائياً، عقّمته، وجلست وقد مدّت قدمها فوق قطعة القماش، ربطت إصبع قدمها الكبير جيداً حتى احتبست فيه الدماء وتخدر، أمسكت بالمشرط وراحت تقطع إصبعها رويداً رويداً تتلذذ بالألم، وقد أغمضت عينيها منتشية، ولما وصلت إلى العظام، أخذت السكين الكهربائي، وأوصلت فيشته بالقابس، ثم عملت على برد عظمة الإصبع،ولما انتهت من عمليتها، فكّت الشريط ولفّت قدمها بالقماش، وضعت إصبعها بداخل جيبها، ثم نامت، وقد حاورت الألم بأنين متواصل..

راحت تشدّ أذنيها وتفرك فيهما، وهي تقضم شفتيها تتمتم: "مادام هذا العالم مليئاً بأمثال أشخاص دائماً ما يستغلونني بينما أقابل

الاستغلال بالسكوت، فإنني سأظل أقطع من لحميحتى يذهب جبني".وكانت "سهيلة" قد خرجت حديثاً من عملية نصب جديدة من عملها في مكتب المحاماة، ولما لم تستطيع أخذ حقها كاملاً تنازلت عنه، مما أصابها بخيبة من نفسها.. شرعت "سهيلة" تضحك وعيونها تتألق بالشر، وهي تنظر لقدمها مصدرة قهقهات وحشية، ولم تكفّ عن الضحك إلا عندما انفتح باب حجرتها مرة واحدة.

قال لها، وهو يقترب منها رويداً رويداً، وقد لجمت المفاجأة لسانها، ففتحت فمها، وجحظت عينيها على اتساعهما:

- هل هذا صوتك؟ هل كنت تضحكين بالفعل مع نفسك، لا، لا يهم جميعنا يتذكر شيئاً مضحكاً مثلاً، ولكن أن يضحك بهذا الشكل هذا هو الغريب، ها هاهاها، تشبه ضحكة المزدوج وأبوالغضب في كرتون مازنجر أتعرفينه.
- هل دخلت هكذا من بينهم دون اعتراض؟
- نعم، وما المانع؟
- ألم يوقفك أحد؟
- ولماذا يوقفونني؟ أنا اكتئابك أنت، ولست اكتئاب أحد غيرك، فقط هذه القطة الشرسة أوقفتي.
- بيسو.

- هل أسمها بيسو؟ حسبتها قطة وليست قط.
- نعم انها قطة ولكن حينما اشتريتها ظننتها قطا فأسميتها بيسو.
- لمذا تضعينها في الخارج مع صغارها اذا؟
- أأقول لك سر؟
- بالتأكيد سرك في بئر.
- اذا اقترب، فالأسرار لا تقال الا حينما يكون الفم قريبا من الأذن.

اقترب "طه" فشدته "سهيلة" من أذنه وهمست بداخلها.

- حين اشتريتها لم أكن أعلم أنها قطة ولم أكن أعلم أنها حامل، حتى وضعت، فطردتها من المنزل وقررت أنها لن لا تدخله، فأشفق عليها والدي وأختي "سيرين" ووضعا منزلها أمام الشقة وتبادلا الاعتناء بها ومنذ ذلك الحين وأنا أرمي صغارها في كل مرة تضع فيها.
- الأن فهمت سر شراستها، يالك من مجرمة ولكن لماذا تحرمين القطة من صغارها؟
- الحقد .. لقد حقدت عليها وحسدت صغارها على أمومتها، أنت لم تر كيف كانت تعتني بهم وتحويهم، انها تغيظني تقربهم أكثر منها، تلعق فرائهم، يغلي قلبي ويفور ثم تنسكب دمائه الحارة تشوهني، أشعر أنني أود قتلها أو قتلهم فأختار التفريق بينهم.

- كيف تكتبين الشعر وبداخلك كل هذا السواد.
- أكتب شعرا أسودا، مثلي ومثل نهاري وحياتي، والهالات السود حول عيوني، أكتبه وأنا أدفن عقلي في الظلام وعشرات الأفكار المضيئة تدور حولي، ورياح تحمل الطلع تعبث بي تريد لو تلقحني رغما عني، فأضم ساقاي، لا أريد أن أكون أما، لا أريد، انني لو فعلت لرميت أبنائي مثلما فعلت مع صغار القطة، أكتب شعرا مفزع ومفجع، أنا الحاكم المطلق فيه أنا من أحرك القافية وأبعثرها، ثم ألملمها وأضفرها، عندما تفترق الصغار عن أمهم، عندما لا أسمع موائهم، ولكنني أسمع أمهم تئن لغيابهم فأختبر شعور الأمومة بها، أبكي أمامها اجلال وتقديرا لعاطفة الأمومة العظيمة، وبعد أن أسترد هدوئي وسكينتي بارتياح حقيقي أرجع الى غرفتي أكتب شعرا آخر مرهفا عاطفيا وربما رسالة لك يا اكتئابي، لكن قل لي ألن يراك سواي؟

حرك "طه" رأسه ليخرج من هذه الحالة التي أدخلته فيها "سهيلة" وأجاب.

- نعم.
- عظيم، وأين كنتَ يا اكتئابي طوال الأسبوعين الماضيين؟
- كنت في منزلي بعيداًبعيداً.

- لكنني لا أشعر بأنك بعيد.
- هل أنت بخير يا "سهيلة"؟
- بالتأكيد يا اكتئابي، فلا مجال إطلاقاً للعودة للخلف، ما دمت قد ظهرت أنت في حياتي.. بالمناسبة أنت وسيم.
- أنا وسيم؛ لأنك جميلة.
- أتعلم حين أراسلك أجد نوعاً من المواساة، لا أحد يحب أن يكون وحيداً.
- إنني أعرف كل شيء عنك.. تقريباً.
- ذلك لأنك عاصرت حياتي كلها.. تقريباً.
- لماذا لا يكون لديك أصدقاء، وتخرجين وتنطلقين فرحة ككل الفتيات في عمرك، فأنت تستحقين السعادة؟
- لأنني لست ككل الفتيات.
- تقصدين قصة زواجك الأولى؟
- بل قصة حياتي كلها، إنني حين أخرج وأتعامل مع البشر أشعر، وكأنني غريبة لست مثلهم.
- هذا حقيقي؛ لأنك مميزة.
- لا، لا أقصد التميز ولكن....
- ولكن ماذا؟

- هذا ليس من شأنك.
- لماذا كنت ترسلين لي خطابات إذاً تطلبين فيها مني العودة إذا كان لا شأن لي بك؟
- لقد طلبت منك في آخر رسالة ألا تعود.
- هذه الرسالة لم أقرأها، إذاً وداعاً.

أمسكت بذراعه، وهو يستدير للرحيل.

- لا تذهب أرجوك.
- أتحبين أن نخرج سوياً؟
- نعم بالتأكيد.
- خذي، هذا هو العنوان تعاليْ غداً الساعة الرابعة عصراً، سأنتظرك.. الآن سأذهب.. إلى اللقاء.
- ألست اكتئابي من المفترض أن ترافقني.
- كنت رفيقك من دون أن أرافقك.. ما الجديد؟ سأنتظرك.

ثم خرج "طه" ترافقه "سهيلة"، مارّة بوالدتها التي مرّت من أمامهما كأنها لا ترى "طه"، وكان والدها جالساً أمام التلفاز، ولم تهتز فيه شعرة، حتى خرج بسلام من المنزل تلوّح له "سهيلة".

في اليوم التالي استيقظت "سهيلة" فرحةً بشيء ما، شهيتها مفتوحة على الإفطار،ووجهها باسم دون سبب، ثم خرجت على الساعة

التاسعة، تجوّلت في المتاجر تختار ملابس جديدة، اختارت جاكتاً لونه روز فاتح وقميصاًوبنطالاً أبيضين، ثمتوجهت لسنتر تجميل، تدلل بشرتها المنهكة بإرهاق السنين، ثم ضحكت من نفسها، إن كانت رسائلها تصله لم لا يكون موجوداًالآن يراقب اهتمامها بموعده.

من جانب "طه"، فقد اتفق مع أصدقائه على خطة أنهم سيستقبلون "سهيلة" كأي زبون في المقهى، وحين يأتي فإنه وبإشارة معينة سيعني ذلك أنه مختفٍ بالنسبة لهم، وبإشارة مغايرة ستعني أنه مرئي وظاهر.

داخل المقهى جاءت في الموعد، وكانت طاولة محجوزة لها، وكان "طه" قد اختبأ بالداخل ينتظر قدومها، وبعد دقيقتين خرج وقبل وصوله عند "سهيلة" أشار إشارة وقوف.

- لا تظهري أن أحداً معك.
- آه نسيتُ أنه لا أحد سواي يراك.
- أستطيع أن أشغّل خاصية الظهور إن شئت.
- حقيقي؟
- صدقي،إنني اكتئابك ألن تصدقي أن عندي خاصية ظهور واختفاء.
- صحيح عندك حق.
- ها هو النادل آتٍ.
- أنت على أيّ خاصية الآن.

- خاصية الاختفاء.
- جيد.

ويأتي النادل وهو صديق لـ"طه"، وكان "طه" لحظتها يستند بذقنه على كفه علامة على أنه مختفٍ، فأمال النادل بجزعه ناحية "سهيلة".

- تأمرين بشيء سيدتي؟
- نعم، ولكن ليس الآن، عندما يأتي صديقي سوف أطلب، أقصد سوف نطلب شيئاً.
- كما تشائين سيدتي.

ابتسمت "سهيلة".

- هل هذا حقيقي؟
- نعم، ولكن انتظري لا يمكن أن نتحدث هكذا دون تشغيل خاصية الظهور، سأذهب وأعود مرة أخرى، كأنني لم أدخل الكافيهإلا في هذا الحين.
- حسناً اذهب.

رجع "طه" مرة أخرى، وجلس في مكانه، وهنا أتى النادل يسأله عما يطلب.. ثلاث ساعات من الحديث مع "طه"وفنجاني قهوة وواحد كابتشينو واثنين من الآيس كريم، تناولتهم"سهيلة" بمفردها.

وفي نهاية حديثهما، وقبل الوداع، وهما واقفان على ناصية شارع منزل "سهيلة"، قالت له:

- بدأت أشعر بالسعادة معك يا اكتئابي، وهذا يقلقني؛ لأنني أخاف مع السعادة فقدانك، لقد جعلتني أوقن بأن في الحزن بعض النعمة، كأن تلتقي برفيق يلمسك، يشعر بشعورك وقت لا يعلم أحد ما هي حقيقة داخلك.
- "سهيلة" عزيزتي، أريد منك أن تكوني مدرّبة على الفراق، ولتعلمي أننا جميعاً نمضي في الحياة مفارقين، محطات في قطار الحياة، لن يتأخر أحد عن محطته أو يتقدم.
- ليت هنالك حبوباً نأخذها لننسى البعد والفراق.
- ها أنا بدموعك تلك تأكدت من أنني لن أفارقك.. امسحي دموعك يا "سهيلة" فلا شيء يستحق.
- بل أنت من يستحق،أنت مذهل، تجعل حماسي متقداً، تصنع لي جناحين يودّان لو يعانقانك ويطيران بك.

ثم همت "سهيلة" بمعانقته وإحاطة عنقه بذراعيها، فأبعدهما "طه" عنه ببطء قائلاً:

- قلبيقلبي أصبر عليا، واعقل شوية.
- مالك الآن تؤمر فيا.

- مازالت ما غيرت الخاصية.

رجعت "سهيلة" لأول مرة تقبّل مخلوقاً منذ سنوات، قبّلت أبناء أختها، وألقت التحية على والدها ووالدتها، قليلاً بدأت تندمج مع الحاضر، في حجرتها شعرت برغبتها في لقائه مرة أخرى، فكتبت له:

عزيزي اكتئابي..

أنا لا يهمني من تكون، فقد وقعت في حبك، أياً كنت فإنني علقت بطريقة ما في طريقتك وأسلوبك، لسنين أغلقت أمام الحب بابي؛ لأنني لم أعد أرغب في الفشل، فلقد جربت حظي مرة كانت كفيلة بتفجير قلبي، لكنك حينما ظهرت تغيرت كل تصوراتي، إنني غارقة، غارقة فيك، ولست مستعدة لإنقاذ نفسي.

كنتجبل ثلج بكلمة منك أشتعل وأتحول لبركان، لقد أتيت لقلب الأمور، لتحول البخار لماء والماء لبخار، ولو أن الناس عرفوا أنني ذبت فيك لقالوا عني إنني جننت، ولكنني لن أهتم سواء كنت أنت حقيقةأو خيالاً.. هذه الإشارة الحمراء تنبئ بالخطر، ولكنني أيضاً لن أهتم، وسوف أعتبرها إشارة حظي، ولن أكف فيك عن الغرق.

سهيلة

## -16-

تعددت لقاءات "سهيلة"بـ"طه" كل مرة في مكان يحتضن الألم كعشّ له، مرة في مشفى السرطان حيث ألم المرض،ومرة في العشوائيات حيث ألم الفقر، ومرة في المقابر حيث ألم الفقد، من أمام طوابير المعاشات والجمعيات وفي ملاجئ الأيتام ودار المسنين، ثم في أماكن تحتوي الفرح عند أبراج الحمام والأرض الخضراء أسفل السماء في زفة العرائس وحفلات أعياد الميلاد في الجمعيات الخيرية وفعل الخير بحب، أراها "طه" الدنيا بأبيضها وأسودها، جعلها مرة بعد أخرى تخرج من ذاتها.

تدريجياً، تغيرت "سهيلة" من البدء بداخلها، حتى ظهر هذا التغير في تعاملها، بدأت تعمل على إنهاء دراساتها العليا، الاندماج في حياة أخواتها، إبداء رأيها والاعتراض أحياناً، وكان "طه" ومع كل خطوة تقترب به من "سهيلة"يطلق قلبه نفير التحذير، وفي غمرة الخوف انتابته رغبة في الاختفاء من حياة "سهيلة".. كان هذا كله عبثاً، ليس عليه الهروب بها أكثر عن الحقيقة، وهي الشخص الذي أجبره ودون قصد على التجرؤ بفعل ما يريد حقاً، والاستقالة من عمله المضمون مرتبه، والعمل فيما حقاً يرغبه، وإن كان رزقه كرزق الطير يوماً بيوم.

كوّن "طه"فرقة موسيقية للآلات الوترية مع مجموعة من أصدقائه، تلحّن لمطربين شباب مغمورين وموهوبين، تقدم الفرقة عروضها في النوادي والحفلات والشوارع، برغم المغامرة إلا أن قلبه كان مرتاحاً؛ لقناعة داخلية أن كل ناجح وناجٍ في الحياة كان مفتاح سره هو المغامرة.

في أحد اللقاءات عرف "طه"قصة القلادة المشؤومة ذات الدلاية، والتي دائماً ما تذكّر "سهيلة" بخيبتها؛ رغبةً في جلد نفسها،فقرر أن يدفنها نهائياً ويعوضها عنها بقلادة أخرى، جمع "طه" المال كله الذي كان يأخذه من والدتها، وأضاف عليه مبلغاً من معه.

كان يوم ميلادها فرصته، طلب منه أن تغمض عينيها، ولما فعلت أحاط رقبتها بالقلادة الجديدة.

- كيف حالك الآن وبعد ثلاثة أشهر من تاريخ بترك لإصبعك؟

ضحكت "سهيلة":

- كنت أظن أن هذه القلادة الخرافية بمناسبة يوم مولدي وليس موت إصبعي.
- بل هي بمناسبة مولد "سهيلة" جديدة.. "سهيلة"، ما رأيك إذا نسينا الماضي بما فيه اكتئابك.
- لا بل أريد الاحتفاظ بك.

- أنا مستحيل.
- وأنا الأمل.
- إن الأمل مع المستحيل هباء.
- إذاًأعطني بديلاً غير الأمل لو كان الإنسان يحلم بالمستحيل.
- أريدك أن تكوني واقعية.
- أنت واقعي.
- واقع غير منطقي.
- يكفي أنني مؤمنة به ليصبح منطقياً.
- إلى متى؟إن دوري انتهى، فأنت تحررت من نفسك وحزنك، والآن أصبحت سعيدة، وحتماً وجب عليّ الرحيل.
- أنا غير قلقة، فسوف ترجع لي مرة أخرى؛ لأنك سعادتي، ومن دونك سأرجع حزينة.
- "سهيلة" افهمي.
- أنا أفهمك، وأنت تفهمني، علام أفهم شيئاً آخر؟ كل فهم آخر تضييع للوقت والجهد.
- "سهيلة" أنا أخدعك، كل ما أنت الآن فيه خدعة كنت متفقاً فيها مع أسرتك، ولكنني أحبك، تلك هي الحقيقة التي يجب عليك فهمها، لذا وجب أن تنسي الماضي بما فيه اكتئابك.

شخصت "سهيلة" في وجه "طه" دون أن تنطق، مات الكلام، وركضت هاربة من أمامه.

أسبوع يواصل فيه "طه" الليل بالنهار لجعلها تنطق ولو بكلمة. بداخل منزلها.

- اضربيني إن شئتِ، اشتميني، وبّخيني، عاتبيني، قولي ما تريدين، ولا تصمتي..إن صمتك عذاب.. نعم أخطأت، لكن خذيني بنيَّتي.
- لا تلاحقني.
- لن أكف.
- لماذا؟
- لأنني أحتاجك.
- فيما تحتاجني؟
- عندما يحتاج شخص لشخص ما، هو بالتحديد دون غيره، لا يحس بحاجته الى فهم السبب وكأنه أمر بديهي ولا يحتاج لتفسير، وحين يلتقيا تعمل آلة الحياة بفطرتها وعلنة بدء فصل الربيع الخصب فيخضر العشب اليابس داخل القلوب القحلا.
- نعم، ثم يأت القحط على شكل فراق وخناق واختناق وخذلات، فلا تنبت الأرض ولا تعود الحياة حبلى بالأمل ، انها آلات حصد السعادة

الماهرة جدا كما أن الفراق جائز وممكن لذا وجب الهروب من هذا اللقاء، نحن منتهيين يا طه.

- من قال أنتهينا .. ان لقائنا قدر .. ليس لي أو لك يد فيه، لا يمكن لنا أن نظل مكتوفي الأيدي تاركين الخوف يعبث بنا، لنمسك بزمام علاقتنا ولنتمسك ببعضنا البعض نخوف معركة واحدة ضد الفراق، سهيلة لتضع حدا لهذى الفوضى بداخل عقلك، ليس عليك تصديق نفسك.
- يجب علي أن أقنعك، انك غير مدركة.

تركها في حجرة الجلوس دون أن يستأذن بالانصراف ثم عاد بعد ربع ساعة حاملا أشياء بيده ووقف أمام سهيلة.

- هذا تراب، وهذه بذور وهذا ماء وهذا اناء.
- أعلم.
- أعلم أنك تعلمين ولكنك غير مدركة للحقيقة التي تقول، انه دون غرس البذرة بداخل التراب وريها بالماء ووضع الكل بداخل الاناء لن تنبت البذرة ولن تنمو الشجرة.
- بالتأكيد.

- وهذا ما تفعلينه أنت تنمعين هذه الشجرة أن تولد. لأنك ببساطة تؤيدين الفراق عن اللقاء خوفا من الفراق، أي منطق في تفكيرك هذا، تعال لنغرس النبتة معا ونرعاها سويا.
- لا يا طه لن أفعل، لن أجازف.

دون جدوى، رحل طه ولم يعود مرة أخرى.

الأن "نادية" تشعر بالفشل، لقد أرادت فعل شيء لتصحيح المسار، ولكن فيما يبدو أنها لم تدرك عمق الأخدود أسفل المسار، ورأت الخط الخارجي المعوج، فظنت أنه تشقق يسير، بعض الردم من الممكن أن يرممه، إن سنوات غيابها لم تكن أبداً بالهينة. جلست الى جوار زوجها كماء راكد دون حراك.

- هل رحل "طه"؟
- نعم.
- الثلاث بنات يسوء حظهن في نفس التوقيت.
- هنّ السبب، واحدة تعشق زوجها ومع هذا ترفض الرجوع إليه معاندة ومكابرة، وأخرى ترتضي بالخيال عن الواقع، تعيش مع أحزانها آبية أن تقشع ترابها، والثالثة يتقدم لها حب عمرها للزواجبعد أن تبدل حاله للأحسن وتاب عن سكة تجارة المخدرات ترفضه.

- في هذه لها حق "سيرين" أن ترفض العريس، وهو "ميشو"اسم عريس؟!
- اسمه "محمد"،"ميشو" اسم الشهرة.
- اسم شهرة أم اسم حيوان أليف تقصدين؟
- لماذا تكره الولد؟
- يحب البنت من وراء أهلها، وتقولين مالك ومال الولد.. لماذا لم يخطبها بدل أن كان يمدها بالحشيش؟
- لكنه تاب وتغيّر، وابنتك أيضاً تغيرت،كأنهما شقيقان لنفس الروح، مقصّ وضرب في قطعة قماش متسخة فقسمها بالتساوي، فنصف هو "سيرين" ونصف هو "ميشو"،ثم نفس المقصّ ضرب في قطعة قماش أخرى، ولكن هذه المرة نظيفة، فكان نصف هو "سيرين" ونصف آخر هو "ميشو".

أرادت "نادية" أن تنهض، ولكن قوتها خانتها، ثقيلة على حمل نفسها، همّ"فؤاد" يسندها، لكنها رمت بنفسها على المقعد مرة أخرى.

- على ما يبدو أنه لا مفر من عمل العملية، الوضع يزداد سوءاً بعد سوء، والورم يضغط على الحبل الشوكي في الظهر.
- كذبت علينا جميعاً بأنه مجرد انزلاق، وتنهكين نفسك في العمل.

- العمل يُنسي ويلهي؛ لأنك كما تعلم من المستحيل للإنسان أن يظل مخدراً طوال الوقت، عليه أن يفيق رغماً عنه، وفي لحظات الإفاقة يكون العمل هو البديل هو المخدر الذي أستمر به.
- ماذا تقصدين؟
- لا شيء يا "فؤاد"، لا شيء، خذ بيدي إلى حجرة النوم.

ولتبقى جوار بناتها في نفس المنزل مع وجود "فؤاد" كان على الوضع أن يوضع في نصابه الصحيح بأن ترجع لـ"فؤاد" كزوج وزوجة، هي من طلبته للزواج، وهو لم يصدّق نفسه لحظتها،وراح يقبّل يدها ويشكرها، إنه مازال يحبها، وكانت عاطفتها هي قد تجمّدت منذ أن حرمها بناتها وحرمها عليهن، لكن الرحمة كانت عاطفتها أكبر. باعت الكازينو، واشترت مزرعة في الإسماعيلية.من يومها "نادية" وإلى جانب الرقص كانت تهوى الزراعة، هذا التراب المدهش الذي يحتقرقيمته الإنسان،وهو سر حياته، فلو تحوّل التراب إلى ذهب والذهب أغلى، فبماذا سيستفيد حقاً الإنسان وقد منع طعامه، ببساطة سيموت، فمن الأغلى حقاً التراب أم الذهب؟

## -17-

جرعة المنوم كانت زائدة إذ لم يستيقظن إلا على المغرب، استيقظت في البداية "سيرين"، الرؤية أمامها كانت مضببة عندها، فظلت شبه مستيقظة قرابة عشر دقائق، حتى استعادت وعيها كاملاً استطلعت المكان، إنها ليست حجرتها، على سريرين صغيرين استقلت أختاها، الوضع غريب، عصرت ذاكرتها، إن آخر ما تتذكره هو وجودها في المنزل تشاهد فيلماً مع "سندس"، وماذا أيضاً؟ ظلام، مجرد ظلام. اتجهت إلى الباب، أدارت المقبض، لكنه لم يدر دورته كاملة، فعلمت أن الباب مغلق من الخارج، وتوارد على فكرها أنهن قد خُطفن.

أسرعت "سيرين" توقظ أخواتها، تتنقل بسرعة ما بين السريرين تهتف فزعة قلقة ومنفعلة: "سندس.. سهيلة استيقظا، لقد خُطِفنا". استيقظت "سهيلة" تتلفت حولها، ودون مقدمات كرد فعل أول اتجاه الحادث هرعت إلى الباب فلم يفتح أيضاً معها، فما كان منها إلا القرع عليه بشدة، على أثر الصوت استيقظت "سندس" هي الأخرى، وبين بكاء "سيرين" واستغاثة "سهيلة" أن يفتح أحد لهن الباب، راحت تصرخ بهستيرية.

في صبيحة اليوم السابق لحادثة الخطف،وبداخل منزل "طارق".

- سوف أختطف بناتي، وعليكم جميعاً مساعدتي.

قالت العبارة أمام الخمس رجال "فؤاد"و"طه" و"طارق" و"ميشو" و"سمير"، ثم أكملت:

- يجب أن أساعد بناتي بأي شكل، ولو اضطررتُ للنجاة بهن الذهاب لأقصى العالم، إنني أتحمّل وحدي ثمن عقدين من الغياب المشين.

عقب "فؤاد":

- لست وحدك الملامة، ثم إن تربية الأبناء دون أم وارد حالة الفقد بالموت مثلاً.

بعصبية دافعت "نادية" عن رأيها:

- لكنني لم أكن ميتة، ليتني كنت ميتة يا "فؤاد"،إن حياتي دونهن وغيابي عنهن ذنبي وذنبك، لكن تأثير خطيئتي كان غائراً.

اجتمعت "نادية" بهم في منزل "طارق"، بعد أن هاتفت "ميشو"و"طه" دون إعلامهما بنواياها، أقنعت "فؤاد" أنهما سيذهبان معاً لزيارة "طارق"؛ لأنه مريض، وعليهما مواساته قليلاً لما يمر به خاصة أن السبب هو رفض "سندس" الرجوع إليه.

وبعد أن اقتنعوا بالخطة ودوافعها؛أملاً في نتائج مرجوة، خططوا معاً لعملية الاختطاف على ألا يظهر في الصورة إلا "سمير"، فسيكون هو المرابط الوحيد معهن، ستخدر بناتها جميعاً بوضع كمية مناسبة في العصير مساءً، وسيساعدها "فؤاد" في حملهن واحدة واحدة، ووضعهن في السيارة وأخذهن إلى مزرعة الإسماعيلية.

كانت الأم تقف خلف الباب في هدوء تستمع لصراخ وبكاء بناتها وقرعهن على الباب، إلى أن تعبن، انزوين الثلاثة فوق فراش واحد يحتضن بعضهن، "سندس" كانت أكثرهن وهناً قلقاً بدافع من عاطفة الأم لا تنفك عن السؤال: "ترى أين طفلاي؟ وماذا فعل المجرمون بهم؟..أما "سهيلة" و"سيرين" فقد صمتتا كل واحدة تفكر فيما يمكن أن يحدث لها، اغتصاب، أم سرقة أعضاء، أم مساومة على المال.

طلبت "نادية" من سمير.

- سأذهب إلى حجرتي الآن، وأنت ضع لهم الطعام وارحل دون أي كلمة.
- كما تشائين سيدتي، ولكن أليس من المستحسن أن تطمئنيهن؟
- لا ليس من المستحسن يا "سمير"، افعل ما طلبته منك.

وبالفعل نفّذ "سمير" ما قالته له "نادية"،أدار المفتاح في الباب، فارتفعت عيون الفتيات مترقبة منكمشات أكثر على أنفسهن. دخل "سمير" بالطعام، فعاجلته "سندس":

- من أنت؟ ولمَ نحن هنا؟

انتفضت "سيرين" واقفة:

- أنا أعرف هذا الرجل، إنه"سمير" سكرتير والدتنا، ولابد أنه خطفنا من أجل المساومة على المال.

وراحت تنقضّ عليه إلا أنه أزاحها بعنف، فاصطدمت بأرضية الحجرة، هرعت نحوها أختاها، وقتها خرج "سمير" سريعاً.

في اليوم التالي.

قضى الأخوات ليلتهن مؤرقات، لم تمد واحدة منهن يدها على الطعام، ولما قرصهن الجوع زحفت "سيرين" وقدّمت صينية أمام أختيها، امتنعت "سندس" عن الطعام، فمن كثرة التفكير في طفليها أصابها الهذيان تردد اسميهما دون توقف وهي تهز رأسها يميناً وشمالاً، ودموعها تنهمر شلالاً.

مرة أخرى يستدير المفتاح بداخل القفل، ويتحرك مقبض الباب، رويداً رويداً انفتح الباب محدثاً صريراً مخيفاً، إنها أمهم ظهرت، هرول الثلاثة إليها مرتمين في حضنها، أخيراً شعرن بالأمان ولاح لهن أن هنالك أملاً في النجاة، أخذتهن الأم في حضنها تربت عليهن:

- لا تقلقن، فأنتن في حمايتي.

بلهفة قالت "سندس":

- طفليّ أريد طفليّ.

أجابت "نادية":

- طفلاك كذلك بخير.

انفلتت "سهيلة" مبتعدة:

- ما الذي يحدث بحق كل ذلك الهراء؟

نظرت الأم إليهن جميعاً تتفرس الهلع على وجوههن:

- أنا التي اختطفتكن.

بردت الملامح، وهدأ محياها، تنهدن بعمق يحمدن الله أن الخاطف هو أمهن، سألت "سندس":

- ولماذا فعلتِ ذلك يا أمي؟

أجابت الأم:

- لأستفرد بكم وأعوّض أمومتي السابقة.

سألتها "سندس" أيضاً:

- وطفليّ لمَ تختطفهما أيضاً؟

أجابت:

- لأنكن حينما اختُطِفتن مني من قبل كنت من دون أبناء، هذا السبب الأول، أما السبب الثاني لتشعري بشعور الحرمان من الأبناء".

سألت "سهيلة":

- إلى متى إذاً؟

- حتى ينسحب مني كل أثر من المخدرات.

قالت "سهيلة":

- أي مخدرات؟

فأجابت "نادية":

- المخدرات التي لجأت اليها لأسحب كل ألمي اتجاه فراقكن.

- هذا عبث.

قالتها "سيرين" وأكملت:

- أنت تعبثين بنا الآن يا أمي.

خرجت الأم وتركت الباب مفتوحاً فتعقبها الثلاث فتيات يسألهن بالتناوب دون أن تجيب هي، وظللن يتقفين أثرها إلى أن تعبن، فتجمعن مرة أخرى في حجرة المعيشة.

اتضح أمامهن أن الأبواب الخارجية جميعها مغلقة، وأن النوافذ والشرفات لا تطل إلا على عرائش وأشجار إلى مدى البصر، وأنهن معزولات كلياً، فلا هاتف ولا وسيلة اتصال بحوزتهن، وليس بيدهن إلا الانصياع للأم، حتى تقرر هي ما الذي ستفعله.

في الظهيرة شعرن بالجوع، وكن ينتظرن أن يأتي أحد لهن بالطعام، لكن أحداً لم يفعل، وكانت الأم على حالها صامتة تحيك كما كانت تفعل في الزمن الماضي المفارش وتطرزها، تقدمت "سهيلة" منها:

- إننا جائعات.
- حضّرن الطعام.
- لا يوجد شيء من الممكن أن تقف عليه العين ليؤكل، اللهم إلا إذا كنت تقصدين الأثاث والقماش.
- بل أقصد الطعام، لكل واحدة منكن خزانة فيها طعامها.

ثم أخرجت من جيبها ثلاثة مفاتيح، وأعطت لكلواحدة مفتاحاً، وطلبت أن يتبعنها إلى حجرة فارغة إلا من ثلاجتين وخزانة، فتحت كل واحدة منهن ثلاجتها، وكانت الخزانة الخشب من نصيب "سندس"، والتي كانت تضم بقوليات؛ شاي، وسكر، ومكرونة وأرز، وفاصوليا... وغيرها، ثلاجة "سهيلة" ضمت اللحوم والأسماك،وثلاجة "سيرين" ضمّت الخضر والألبان.

قالت الأم:

- كل واحدة تطعم نفسها من أكلها.
- كيف؟
- تعاونّ ولتقترض كل واحدة من الأخرى يا "سندس".

- وأين البوتاجاز.
- أنا من أمتلك الموقد، ولتحضرن الطعام عليكن جميعاً الرجوع إليّ.

فهمت الثلاثة بنات مغزى خطة الأم، وبالفعل تشاورن فيما يمكن طبخه، وأخذن من كل ثلاجة والخزانة ما يحتجن، وذهبن خلف الأم، وبداخل المطبخ وقفن الأربعة تساعد كل منهن الأخرى، حتى أتممن إعداد الطعام، وجلسن الأربعة على طاولة واحدة.

ثلاثة أيام مرت.

"نادية"الآن تعاني آثار الفترة الأكثر إيلاماً بالنسبة لانسحاب المخدرات، لم تعد قادرة على التماسك وحفظ توازن جسدها، يلازمها القيء، الصداع يكاد يقسم دماغها، جسدها كله يصرخ طالباً جرعة تسكن الوحش المنطلق في الدماء، أنفاسها تتلاحق وضربات قلبها تكاد تخرج من صدرها.

أغلقت على نفسها حجرتها، ووسط انتحابها وصرخاتها المرعبة هرعت الفتيات اليها، هتفن ولكن دون استجابة منها، قرعن الباب وأيضاً لم تفتح، كانت "نادية"، وقد استلقت على الأرض تنغرس أظفارها في لحمها تدور كعقرب الثواني في الساعة مرتكزة على عقبيها تنوء وتزوم بصوت غير آدمي.

"سمير" لم يكن موجوداًولا يمتلكن هاتفاً، الباب الرئيسي للمنزلمغلق،لكن النوافذ قريبة من الأرض فرت الثلاث فتيات إلى المزرعة عبر نافذة في الطابق الأرضي، كان الظلام يلفّ المكان وحده كان ضوء القمر دليلهن، وسط الحشائش الملتفة وبين جذع الشجر تخللن حتى وصلن إلى سور المزرعة، السور عالٍ جداً بالنسبة لقامتهن درن حول أنفسهن أن يجدن طريقة للخروج إلى الشارع، وطلب مساعدة من أقرب منزل أو مكان عام.

اكتشفن وجود بناء صغير مبني بالطوب الأحمر داخل المزرعة، اتجهن إليه في خوف وحذر واحدة خلاف الأخرى، مسترقين النظر مرهفين السمع لأي حركة أو صوت، دخلن الحجرة المظلمة:

- لا بد وأن بها مصباحاً لنبحث عن قابوس النور.

قالت "سيرين".

تلمسن الحائط وفجأة صرخت "سهيلة":

- وجدته.

ثم ضغطته، وأنارت المصباح، الحجرة ملأى بالكراكيب، توسطهن كنز من سبيله إنقاذ الموقف، سلم خشب طويل، تشارك الفتيات الثلاثة في حمله، ووضعه على جدار السور، اقترحت "سيرين":

- اثنان يتسلقن عبر السلم إلى الشارع، وواحدة تظل مع أمنا، قالت "سهيلة":

- إنني أخاف تسلّق هذا الشيء، سأظل أنا مع أمي.

كانت "سيرين" هي الأجرأ من بينهن، فتسلقت في البداية، وجلست على حرف السور.

- هيا يا "سندس".

بمشقة وصلت "سندس"، وجلست هي الأخرى على حرف السور، نظرت "سيرين".إنهن حرفياً وسط مكان شبه بغابة أو أحراش، صفوف شجر تلو الأخرى خلف بعضها.إن المنطقة عبارة عن تجمّع عدة مزارع، شعرت لوهلة باليأس، ولكنها تمالكت نفسها، فإما الأمل وإما الموت، طلبت من "سهيلة" أن ترفع السلم، وهي و"سندس"ترفعانه حتى تصلانه لمنتصفه ثم تجعلانه مستلقياً بالطول ينتصف السور، وعندها يبدأن في إنزاله ببطء حتى يصل للأرض، فيقربنه من السور ويستندن عليه.

الآن وقد أصبحتا في الأسفل وهدوء الليل يرافقهما، أخذتا تمشيان وتمشيان إلى أن وصلتا للشارع الرئيسي، رجعت "سهيلة" لعند "نادية" وجلست أمام الباب.

-أمي أنا هنا، لقد خرجت "سندس" و"سيرين" لطلب المساعدة.

لم تجب الأم إلا بصوت ضعيف لا يُسمع، إلى أن راح تماماً، أخذت "سهيلة" تهتف، ولكن دون جدوى، كانت "نادية" تسمع صوتها، ولكنها غير قادرة على الكلام، ثم بدأت تتشنج عضلات جسدها كله، دقيقة من التشنجات ثم هدأت، ولما استقرت ظلت تهتف على "سهيلة"، ولكن دون جدوى فارتابت من أن يكون قد حدث معها خطب ما، تمالكت "نادية" نفسها وسحبتها إلى أن وصلت إلى الباب، متشبثة في نتوءاته، نهضت وفتحت الباب، لم تجد "سهيلة" بالقرب، وبصوت خافت راحت تهتف: "سهيلة، سهيلة"، فكرت في أن من الممكن أن تكون قد ألحقت الأذى بنفسها.

داخل الحجرات لم تكن أيضاً موجودة، ومازالت تهتف بضعف: "سهيلة" إلىأن ارتقى لسمعها صوت مناجاة آتية من الشرفة المطلة على المزرعة.

- "اللهي إليك توجهت وعليك توكلت وفوضت أمري في أمر أمي وأخواتي أن تشفي الأم وترد الأختين سالمتين، توجهت إليك بالعجز والذل والمسكنة والضعف والفقر، يا معين أتوسل إليك بكل أسمائك وصفاتك وكمال ذاتك، يا حي يا قيوم يا واحد، سألتك أن تفيض علينا من رحمتك وقدرتك أن تحفظ لي أمي بعدما رددتها،اللهم أسعدنا وأخواتي وأبي، وكل من مسّته شفاعة قلوبنا".

أخذت "نادية""سهيلة" بين ذراعيها.

- كنت خائفة أن تكوني أذيت نفسك.
- وهل أذيتي لنفسي سوف تشفيك أو تُرجع "سيرين" و"سندس"؟ لو فعلت ذلك لصحّ عليّ وصف أنانية.

على الفجر وصلتا سندس وسيرين الى منزلهما وللمفاجئة أن من فتح الباب كان هو ميشو، بدأت تظهر الحقيقة أمام سندس وسيرين، بعدما استيقظ الوالد وطه وطارق يستعلمون عن الطارق في هذا الوقت من الليل.

- من الأفضل انهاء هذه المسرحية الهزلية فأمنا تحتاج لنقلها.
- سيرين لم يكن هنالك حلا آخر لارجاعكن سوى باختطاف والدتكن لكن.
- لا أمل في الرجوع يا ميشو.
- لما؟
- ميشو.. هل ستبكي امام بكائي؟ هل ستضطرب حينما أضطرب؟ هل ستثبت أمام تذبذبي؟ هل تستطيع أن تكون بطلي؟ هل ستظل الى جواري وقت ما سأهرب بعيدا بعيدا ؟ باجابتك أنا لا أهتم الأفعال تستطيع أن تجيب نيابة عنك

**فالكلام يهدر وقتا طويلا أصمت انني أراني هناك بعيدا ولتعلم أنه دون أن نلمس النار نستطيع أن نشعر بدفئها عن بعد لذا لنبتعد حتى لا نحترق اجعلني هنا حين أكون هناك انني غير قادرة على البقاء وغير قادرة على اسعادك لذا اجعلني هناك أو اجعلني أذهب الى هناك حيث أغرق في دموعي وتسحبني الأشباح الى عالمها لأنني لن أكون واعية بك هل اذا ما سقطت في البئر ستكون موجودا لانتشالي ، لا أظن فلا أحد يراقب أحد طوال الوقت لا أحد يسير مع أحد على طول الدرب لذا لا تجيب لا تكون متسرعا وتقول نعم أنا أستطيع لأنك لن تستطيع ...**

وأما الأن فلتطلب الأسعاف.

## -18-

الأخوات الثلاث كل واحدة مع حالها ساكنة، الثلاثة تركن عملهن، وأهملن أنفسهن، صامتات يملؤهن الضجيج، وقد استعادت كل واحدة قصّتها مع حبيبها، السعادة، فالتعاسة، ثم الفراق، لم ينسين ولو خلجة واحدة مما حدث، تمر الذكريات طوافات.

في الجانب الآخر ثلاث رجال لثلاث نساء تركنهن لسوء تصرف منهم وفهم لطبيعة المرأة، تراوغ الأنثى رجلها، وتستخدم حيلها، لكن معها تريده أن يأتيها سائراً على خط مستقيم، لا تراوغ المرأة؛ لأن صبرها قليل، وهي لا تكذّب حبيبها ولو كانت هي كاذبة، إنها العلاقة الأكثر تعقيداً على الوجه.يتعامل الحبيبان كعدوين، ولكنهما يرغبان جداً وسط الحرب أن يتعانقا، عيونهما معلقة على الآخر تتابع حركاته، هنا هو يوجد وهناك طيفه، عيونه تنظر إلى هذا الاتجاه، وأقدامه تسير على هذا الطريق، الآن استيقظ هكذا يقول المنظار، تقول العدسة المكبرة التي تتفحصه أن شخصاًآخر سلّم عليه اليوم، خمس دقائق غاب عن النظر ربما قد حدث فيها ألف احتمال يقابله ألف موت.. إنه العذاب يأتي على شكل أن تحب إنساناً.. ولكنك لا تكلّ، حتى تتقابلا فيدير الآخر وجهه، فكلما ازداد الحب زاد معه المكابرة، يكره الإنسان ضعفه وهي فطرة، يتحول الأمر لمزيد من الجنون، ينزفان

شوقاً وتوقاً ومازالا واقفين كل واحد فوق سفح جبله العالي معه منظاره.. ينزفان.. وينزفان..

الروح في ورطة، يتنفسون بالكاد، ينتظرون ناظرين إلى الصور أن يخرج منها أحباؤهم، إنهم لم يفقدوا عقولهم؛إذ يرون أحباءهم في كل مكان وزهرة في أيديهم لاستقبالهم والنظر غائب عن غيرهم، إنها قصة حبهم وتلك قلوبهم غير الهادئة.. "سندس وطارق"، "سهيلة وطه"، "سيرين وميشو".

الستة الآن يتجولون في الشوارع يناجون: " آه يا عذابي الجميل، لقد قرعت أجراسي ونبهت حواسي ثم تركتني، لماذا كان كل هذا؟ ليتنا نبدأ من جديد، أشعر بك الآن، أنت تريدني، أنت تحتاجني، وسأفعل كل ماتريد للإبقاء عليك؛ لأنك وحدك القادر على جعلي أشعر بأني حي".

الحلْق يشعر بالمرارة، والقليل من لقاء من نحبهم يشبه الكثير من قطرات العسل، يسيرون هائمين ولا أمل من قطرة واحدة من العسل، لقاء يأتي بالصدفة، بواسطة هذا الوجع الرقيق الحاد اكتشفوا حقيقة الدنيا، إن كل مآسي العالم الذي يتقلب فوق صفيح ساخن، وكل الصراعات على المادة، جموع اللاجئين يفصلهم عن أحبائهم الحدود والأسلاك، وهذا الذي يفجّر نفسه لا يريد نصرة كلمة الله،إنما يريد تفرقة الأحبة، إنهم لا يغزون الأرض إلا من أجل الكره،

ومصانع الأسلحة لماذا لا تشمّع،إن وجودها جريمة، فكل رصاصة مهيأة لقتل حبيب، منافذ غسيل الأموال القذرة، هل حقاً تلك الأحداث الطاحنة هي أهم من قصة حب ميتة بين رجل وامرأة.

إن العالم الكبير أساسه قصة حب بين آدم وحواء، ولكنه اتسع وعلت أعمدته حتى أصبحت باقي طوابقه قصص كره، ما من قائد قاد حرباً على البشرية إلا وضعف أمام الحب، وتحول "شمشون" على يد "دليلة"إلى قط منزلي، وجنّ"قيس" بالحب والثائر المناضل خضع أمام سلطة قلبه، وها هو "هتلر" حين هزم لجأ لحضن امرأة، فلماذا أيها الغبي إذا لم تكتفِ بحبك وعالمك الخاص في حضن امرأتكعوضاً عن حرق ألف وألف وألف قصة حب.

دعني أحلم أيها الكره، ويحلم أبطالي معي بأننا نستطيع تشكيل العالم من جديد من رجل وامرأة؛ فالحياة لا تنبض طويلاً، قصيرة هي جداً لها رأس وذيل، ومازال الإنسان يركض ويركض لاحتلال الأرض وكنز المال والفوز بالجائزة الكبرى في سباق التنافس، حسناً، سوف نموت جميعاً، نحن ومن تنافسنا معهم، ويتوقف صراع الشر رضينا أو أبينا ورغماً عن أنف الكارهين سيعيش الحب والكره، وقد يحب الكره الحب، ويتغير لأجله ليكون البقاء للحب وحده، فليتوقف هذا العبثالآن وحالاً،إن السعادة فقط تكمن في قلب هادئ وعقل مرتاح

وضمير يقظ، حينئذ ستكون الحياة بطعم السكر،وسيحصل الإنسان على ما يصارع من أجله وهو الرضا.

-19-

جلس الأخوات الثلاثة "سندس" و"سهيلة" و"سيرين" فوق سرير واحد، وقد أوتهن بطانية واحدة تطوي يد كل واحدة منهن كوب سحلب ساخناً، تماماً مثلما كن يفعلن في مرحلة الطفولة وبدايات الصبا، بم يمكن أن يأملن أو يحلمن وقد قطعن طرق المستقبل بأيديهن، كان في أعماق كل واحدة منهن فجوة، ثلاث عازبات وحيدات هنا أيقنّ أن الأمنية البسيطة في وجود الشريك إلى جانبهن أعظم من ما قد يقدمه لهن القدر، يكفي أن تجد من يهتم لأمرك لا لشيء سوى أنه مهتم، العائلة والأصدقاء رائعون، ولكن يظل هنالك شخص معين من الممكن أن يعادل كل البشر، حلم محدود ولكن مداه يشمل محيط الإنسان كله.. أن تجد توأم روحك الحقيقي.

سألتهن "سيرين":

- وماذا بعد؟ لقد حاولت أمنا مساعدتنا، ولكن دون جدوى،فمازلنا على عنادنا.

لم تجِب واحدة منهن، فهن يعرفن قصد "سيرين"، ماذا بعد الخيبة؟أكملت "سيرين" حديثها:

- بالمناسبة أمنا لم تفشل، فلقد تغيرنا كلنا من الداخل، وتبدلت علاقتنا بها،أما عن من الخاسر والفاشل فهو نحن الخاسرات،إننا لا

نعاقبهم، بل نعاقب أنفسنا أيضاً، وعقابنا أشد؛ لأننا من نضع أنفسنا على آلة التعذيب بأيدينا لا بيد معذبينا.

- وما العمل؟سألت "سندس"..
- نرجع لهم.

بصوت زاعق نهرتها"سهيلة":

- لا، إني لأرتضي أن أتعذب وأعذبه ولا أرجع له.

رجعن صامتات مرة أخرى يشربن السحلب، قطعت "سيرين" الحديث مرة أخرى:

- سوف نظل وحيدات، وسوف يسعدون هم بحياة أخرى وحبيبات أخريات، ولن نستطيع نحن نسيانهم، وسوف نموت حتماً من الغيرة والقهر؛ فالنساء غير الرجال.

عقبت عليها "سندس":

- من باعنا بعناه، نتزوج نحن ونعيش قصصاً جديدة.

صمتن مرة أخرى، ورجعن لشرب السحلب.. ترقرقت عيون "سندس"، وهي تتخيل "طارق" وقد تأبطت ذراعه امرأة أخرى، تخيلتهما جالسين معا يتمازحان، يتشاركان نفس طاولة الطعام والغطاء وكوب الماء، فبكت وارتفع صوت بكائها، وهنا علا صوتهن جميعاً بالنحيب، ينهار

ثباتهن الذي حافظن عليه وطيلة شهور، وجاء القرار.. سيرجعن وليحترق العناد والكبرياء والاكتئاب.

أمام شقتها وقفت "سندس" في كامل رقتها وحنانها تنتظر "طارق" أن يفتح لها، وكذلك كانت "سهيلة" و"سيرين" كل واحدة واقفة أمام باب حبيبها، بابتسامة: "ها أنا يا حبي قد عدت، فتعالَ لنعيد سرد الحكاية من جديد".

وقد اتفقت الأخوات إن سارت الأمور كما أردن يتقابلن مع رجالهن في مكان حددنه للاتفاق على الخطوة التالية.

فكّر كل واحد من الرجال الثلاثة في أنه ليس هنالك مجال آخر للمكابرة وردّ الصاع صاعين، والمراوغة، ألا يكفي كل هذا الذل والتعب والضنى وكل ما خسروه من سعادة ووقت الوضع الذي أثر على أعمالهم وخطط حياتهم، الثلاثة أهملوا أنفسهم وأشغالهم، أصابتهم العلل طارق أصبح مهددا بالفصل طالما هو مهمل في مراعاة مواقيت العمل وانجاز فروضه، طه ترك الفرقة وكان ينفرد عقدها بدونه، وميشوا أصبح خال العمل تماما فكل ما خطط له أرجأه لحين عودة سيرين. فلما لاحت حبيباتهن تقبلهن جميعاً بروح ثلاثة فرسان استسلمت لهن ثلاث مدن، فأكرموا أهلها، وتسامحوا، وعفوا، وعقدوا معاهدات الصلح والوفاء.

وكانت الخطوة التالية هي عمل مفاجأة للأم، المفاجآت المعدة أشبه بلعبة غميضة يتظاهر فيها اللاعب بأنه مغمض عينيه، ولكنه يعلم ما يدور حوله وهل هنالك من هو في ذكاء "نادية". فلتكون مفاجئة عشوائية وصادمة كصدمة اطفاء الزيت بالماء.

هرول الستة إلى المنزل، كل وليف ممسك بيد وليفته، راحوا يدقون جميعاً الباب كدق دفوف الفرح، ولكن أحداً لم يفتح، فاضطرت "سندس" لإخراج المفتاح من حقيبتها وفتح الباب.. ست أصوات تهتف على الأم: "ماما.. ماما.. ماما.. ماما.. ماما.. ماما"..إنه لا وجود لا للأم ولا للأب. أخرجت "سندس" هاتفها واتصلت بالأم، الهاتف يرن ولكن بالمنزل، وقعت قلوب البنات وهن يفكرن فيما يكون قد حدث للأم، اتصلت "سندس" سريعاً بالأب، وقد ارتبكت أكثر من مرة، وهي تطلب في كل مرة نمرة خطأ، حتى استطاعت إخراج الرقم الصحيح.

- ما الذي حدث يا والدي؟
- والدتكما سقطت من بين يدي اليوم، والآن هي في حجرة العمليات.

من أمام حجرة العمليات وقفت الفتيات الثلاثة متخدرة حواسهن يتضرعن لله ويتوسلن يستسمحن ويعتذرن فلقد سامحن، سامحن كل شيء، خارج حسابات الأسباب والزمن وما حدث، وما هن سوى ثلاثة بنات وهي الأم، كانت أكثرهن قلقاً حد الاضطراب "سهيلة" تدور

أمام باب حجرة العمليات تهذي وتبكي، أخذتها "سندس "واحتضنتها فدسّت " سهيلة "رأسها وسط كتفها:

- لقد قسوت على أمي كثيراً يا "سندس" ولم أعذرها، إنه الخزي يملؤني والخجل منها.

ربتت "سندس" على ظهر "سهيلة":

- أنا أمّ يا "سهيلة"، وأعرف ماذا يعني قلب الأم، إنه يعني أنني لا أعرف معنى أسامح؛ لأنني من الأساس لم أغضب منك، إن كنت لم تقدمي لها العذر، فبالتأكيد هي قدمت لك ألف عذر.

انضمت لهن "سيرين" تحتضنهما، وظللن على هذا الحال حتى خرجت الأم من حجرة العمليات، كانت الأم مسجاة فوق سريرها، ولما لتحظت سندس أن والدتها لا تتحرك صرخت " أمي" فطمئنها الطبيب أنها ما تزال واقعة تحت تأثير البنج الذي سيستغرق وقتا قصيرا ثم ستعود لوعيها حالما يذهب تأثيره.

ربع ساعة مضت قبل أن ترع ناديا جفناها، رأت أول ما رأت ثلاث صور مشوشة لبناتها، مدت ذراعيها لهن وهي تتجه بعيناها لبناتها وإلى "طارق"و"طه" و"ميشو" في حنو، ثم ابتسمت متنهدة، أقبلت"سهيلة" و"سندس" و"سيرين" يمسدن كفيها، ويمسحن فوق رأسها، تبسمت لهن وقد أسبلت جفنيها،وهي تقول:

- وأما الآن فقد هدأ قلبي.

تمت بحمد الله

ش